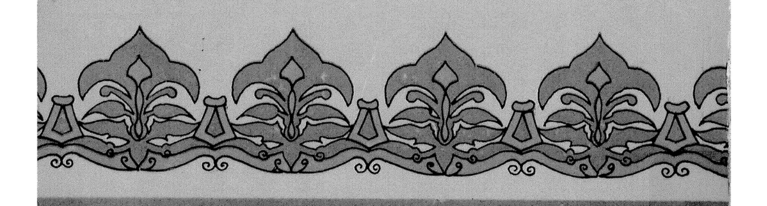


تأليف

أحمد محمد فارس



دار الفكر

إهـــــــداء 2005

أ.د/ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

دار الفكر

النماذج الانسانية في القرآن الكريم



تأليف
أحمد محمد فارس

دار الفكر

الإهداء

إلى الباحثين عن الحقيقة ، إلى ناشدي العـــلم للبناء ، إلى العاملين من أجل سعادة الإنسانية ، إلى الذين يرفضون المساومة على طمس الحقائق، إلى كل إنسان يؤثر الحق على الباطل ، والصحيح على الزيف .

إلى كل هؤلاء أرفع كتابي هذا الذي قبسته من نور الوحي الالهي اليقيني .

ممهدات في أسباب اختيار هذا الموضوع

اعتاد بعض المفكرين في الأزمنة الحديثة أن يقيموا المقولة المشهورة (الإنسان هو المحور) أساساً لأبنيتهم الفلسفية في الكون والقيم .

واذا كان هذا صحيحاً إلى حدّ ما اليوم ، فإن البداية لم تكن على هذا القدر من البساطة والتسليم .

وبعض مؤرخي الفكر الديني يقولون : ان البدايات الحقيقية للاهتمام بالإنسان كظاهرة كونية فريدة كانت في الكتب السماوية وفي التوراة بالذات ، فإن أسفاراً كثيرة في التوراة تجعل الإنسان محوراً ، سواء كان هذا الإنسان نبياً كموسى عليه السلام ، أو ملكا أو قاضياً مشترعاً ، أو عاصياً ، بحيث أدى تركيز التوراة هذا إلى نشأة نماذج إنسانية تستند إلى ما ورد في التوراة كنموذج الإنسان الجبّار « شمشون »[1] ، ونموذج المرأة اللعوب التي تعمل لمصاحـة بني قومها : « أستير »[2] ، ونموذج الإنسان الشفاف الرؤية ، النافـذ البصيرة ، العبقري الإحساس « اشعيا »[3] .

---

(١) سفر قضاة ، الاصحاح ١٣ - ١٨ .
(٢) سفر استير ، الاصحاح ١ - ١٠ .
(٣) سفر اشعيا . الاصحاح ١ - ٦٦ .

وأياً كان الرأي حول بعض النشاز الذي يلحظـــه الأديب المفكر في « شخصية » الإنسان التوراتي ، وما يؤدي إليه ذلك من الاعتراض مبدئياً على صلاحيته نموذجـاً إنسانياً لنمط معيّن من الناس ، فإن حقيقة ناصعة تبدو من خلال ذلك كله ، مؤداها أن التفكير الديني التوراتي رغم ما يشوب شخصياته من سمات تقرب من الأسطورية، وتغلب على قسماتها الملامح الميتافيزيقية رغم هذا كله يبقى النص التوراتي – وهو نص ديني في الأساس – أول نص يتركز حول الإنسان ، شخصية وهموما ومشاكل وأحزانـــاً ومسرات ، فيشكل بذلك الأساس لنشأة نماذج إنسانية معينة ما تلبث أن تشيع وتبرز وتختلط بحيـــاة الشعب ، أي شعب ، فيكون خلودها دليل صدقها وعمقها .

بيد أن تساؤلاً هامـاً يطرح نفسه هنا هو : إذا كانت الكتابة الدينية في التوراة ، هي أول كتابـة متكاملة ترسم نماذج لشخصيات إنسانية ، فأين يقع التفكير الفلسفي الإغريقي من هذا كله ، والمعروف أن بعض مؤرخي الفلسفة يحددون البداية الحقيقية للتفكير حول الإنسان في صرخـة سقراط « اعرف نفسك » وهي الصرخة التي أبعدت التفكير الفلسفي عن الفضول أجيالاً طوالا ، وصرفت المفكرين إلى دراسة « الإنسان » لهدفين اثنين :

الأول : معرفة حقيقته ، لتحديد امكانياته الذهنية والنفسية باعتباره هدفاً.

والثاني : اتخاذه وسيلة لمعرفة العالم من حوله [1] والرد على هذا التساؤل الذي تطرحـه مقتضيات الدراسة ، حاوله بعض المفكرين المسلمين فيما مضى ، عندما واجهتهم المعضلة نفسها فيما يتصل بالقيم الإنسانية ، ومن أول من دعـا

---

(١) كورانيسن : سقراط الذي جرؤ على السؤال ١٢ .
وتيلر : سقراط ٤٥ .
ويوربيدس : مسرحية السحب ٤٣ .

إليها: الأنبياء أم الفلاسفة ؟ فرأى ابن مسكويه في « تهذيب الأخلاق »[1] والفوز الأصغر[2] إن الفلاسفة الأوائل هم أيضاً أنبياء مستنداً إلى ما بين آرائهم وآراء الأنبياء من توافق وتشابه .

بينما حاول الإمام الغزالي في « المنقذ من الضلال »[3] أن يثبت أن التراث الأخلاقي الإنساني الذي بـدا عند فلاسفة الأخلاق الإغريق وغيرهم ، هو من موروثات المفكرين الإنسانيين عن الأنبياء .

والحق أن هذا الأمر لا يعالج بالتبرير التاريخي ، فمع أنه يمكن القول بأن موسى أسبق من سقراط زمنيـاً فإن المبرر الأقوى لاعتبار التراث الديني أول اهتمام حقيقي بالإنسان هو الفارق الواضح بين « إنسان » الإغريق وإنسان الواقع ، والصدق المبدئي الذي يتجلى في قرب « إنسان » التوراة من واقع الحياة المشاهد ، ففي حـين يبقى التفكير الإغريقي حول الإنسان فلسفة باردة يشوبها التعقيد والتناقض ، يحس القارىء الحيـاة تثب وتتنزى في نماذج التوراة الإنسانية ، وكان من أثر ذلك أن أتشأت النماذج الإنسانية في الكتب الدينيـة أمماً ، بينما لم تستطع فلسفة الإغريق الإنسانية كلها أن تحفظ على « اثينا » منشأ هذا التفكير كله حريتها وازدهارها .

والذي نتوخاه من محاولة تحديد بدايات الإهتمام بالإنسان الوصول إلى أن النماذج الإنسانية في القرآن الكريم هي نموّ صاعد للبدايات في التوراة والانجيل ، مع النصاعة الملحوظة والدقة الظاهرة في ذلك لما اتيح للنص القرآني من وسائل « الحفظ » و « التواتر » ويقينية السلامة من التحريف .

(١) تهذيب الأخلاق ٣٦ . ط : مصر .
(٢) الفوز الأصغر ٢٣ . ط : ايران .
(٣) المنقذ من الضلال ١٢٥ ط : مصر . تحقيق د . عبد الحليم محمود .

فنموذج الإنسان الصابر « أيوب »[١] هو في الأساس « توراتي » بيد أن تفاصيل قسماته في التوراة تبعده عن أن يكون نموذجاً مثالياً في هذا المجال ، لما يشوبه من معنى المبالغة والتجاوز والسكونية ، بحيث نرى فارقاً هائلا بينه وبين « الإنسان » و « الإنسان الصابر » أياً كان المقياس الذي نستخدمه لتحديد هذا الفارق أو تضييقه[٢] .

أما في القرآن فالاشارات إلى « أيوب الصابر » أقل بكثير مما ورد في « التوراة » لكن بعدها عن التفاصيل المشوبة مع وضوح قسمات الشخصية فيها، ثم معقوليتها ، بالمقارنة مع « حياة » الانسان يجعل منها نموذجاً صالحاً للغرض الذي سيقت له .

وهذا هدف ثان من أهداف دراستنا إذ اننا نحاول أن نتلمس صدق هذه النماذج القرآنية من الناحية الفنية وبالمقارنة مع الواقع ، على ذلك يكون خدمة للفكر الأدبي ، وللحقيقة النزيهة على أن القرآن الكريم أنشأ أمة ، ورجال علوم القرآن يقولون : « إن القرآن معجزة بيانية »[٣] وكيف يمكن أن تقوم أمة ، أي أمة إن لم يكن الأساس الذي قامت عليه حياتها الجديدة صادقاً ، ومعبراً عن حاجاتها الإنسانية ، وآمالها وأشواقها .

ودراسة النماذج الإنسانية في القرآن على هذا، تزيدنا فهماً بالإنسان من حيث انها فهمته، وصدقت في رسمه فأثرت فيه وغيرته وجعلته عضواً في مجتمع، ورجلا

---

(١) سفر أيوب : الاصحاح ١ ـ ٤٣ .
سورة الأنبياء ٨٣ : وسورة ص : ٤١ .

(٢) قارن بين نموذجي « يوسف » في (التوراة) و (القرآن) بما ورد في « الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي ، ط : دار الفكر ـ بيروت .

(٣) راجع اعجاز القرآن للباقلاني ، دلائل الاعجاز للجرجاني ، ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح .

في دولة ، ثم هي تعطينا مثلاً رائعاً للفكر الصادق ، الجميل في الوقت نفسه إلى درجة أن يصبح نموذجاً ونموذجاً أدبياً بالذات ، مما يثبت أن الجميل يمكن أن يكون نافعاً وان النافع يمكن أن يكون جميلاً ، وليس صحيحاً على هذا أن « اعذب الشعر أكذبه » إذ لا عذوبة تضاهي عذوبة القرآن في نماذجه الإنسانية ، مع الإلتزام بالصدق والبعد عن الأسطورية والمبالغة .

ويبقى بعد هذا كله ان دراسة النماذج الإنسانية في القرآن الكريم تفسر ناحية هامة من نواحي الفكر الإسلامي الكلامي حول « الإنسان » هل هو خير أم شرير بالطبيعة ؟ ومعنى الفطرة في قوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » فتعيد الخلاف حول ذلك إلى موضعه الصحيح في تاريخ الفكر .

وتعطي التربية في الأسرة والمجتمع دوراً رئيسياً في التطويع ليصبح الفتى عضواً صالحاً في مجتمع يرعى الكرامة الإنسانية لكل أفراده.

فإذا أمكن لهذه الدراسة أن تحقق جزءاً مما نؤمل أن يكون فإن ذلك يكون – ولا شك – خيراً كثيراً ، وحسبنا إن لم نوفق إلى ذلك أننا حاولنا ونلنا أجر المخطىء .

ويكون جل اعتمادنا في الدراسة على القرآن الكريم لأن عنوان دراستنا « النماذج الإنسانية في القرآن الكريم » فإذا رجعنا إلى كتاب من كتب التفسير أو الحديث أو الأدب أو الفلسفة فلن يكون ذلك إلا لتعميق الفهم لمعطيات النصوص القرآنية وإيضاح المجمل .

ولا يسعني إلا أن أنوه بالمساعدة القيمة التي لقيتها من فضيلة الدكتور صبحي الصالح أثناء إشرافه على إعداد الرسالة التي قدمتها لنيل دبلوم الدراسة العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية .

والله من وراء القصد

احمد محمد فارس

المدلول اللغوي لكلمة « نموذج »

قبل الايغال في بحثنا علينا أن نتناول كلمة « نموذج » وتبيين مدلولها واستعمالها والمعاني التي تعاقبت عليها .

فليس من شك في أن للألفاظ حياة تتطور بها فتبلى وتتجدد وتتأثر بما يعتريها من ظواهر ، فقد تحمل الكلمة معنى تعرف به في عصر ثم تتجه في عصر آخر إلى ناحية ثانية ترتبط بسمات قد تكون متقاربة مع السمات الأولى أو متباعدة عنها .

والأقوال بشأن كلمة « نموذج » متناقضة ، هل هي عربية أم فارسية أم هندو — اوروبية ، والنصوص التي بين أيدينا لا تكفي لأن تعطينا حكماً قاطعاً إذ إنها لم ترد في لسان العرب لابن منظور .

كما انها لم ترد في كتاب المعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي ، بينما وردت في القاموس المحيط : النموذج بفتح النون مثال الشيء معرّب « والانموذج لحن »[1] .

ويعلق نصر الهوريني في شرح ديباجة القاموس على قوله : «والانموذج لحن»

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادي ١/٢١٠ ط : القاهرة ١٩٥٧ .

تعقبوه وردوه وقالوا هذه دعوى لا تقوم عليها حجة ، فما زالت العلماء قديماً وحديثاً يستعملونه من غير نكير ، حتى ان الزمخشري وهو من أئمة اللغة سمّى كتابه في النحو « الانموذج » والنووي في « المنهاج » عبّر به في قوله « انموذج المتماثل » ولم يتعقبه أحد من الشراح ا هـ .

وفي المصباح المنير لأحمد الفيومي: «الانموذج» بضم الهمزة ما يدل على صفة الشيء وهو معرّب ، وفي لغة نموذج بفتح النون والذال معجمة مفتوحة مطلقاً، قال الصغاني : النموذج مثال الشيء الذي يعمل عليه وهو تعريب نموذه ، وقال الصواب النموذج لأنه لا تغيير فيه بزيادة [١] .

ورأي الصغاني هذا كرّره أدي شير في كتابه « الألفاظ الفارسية المعربة » حيث قال : النموذج والانموذج : مثال الشيء معرّب نموده [٢] .

أما في اللغة الانكليزية فهناك عدة ألفاظ تؤدي نفس المعنى تقريباً أي معنى النموذج .

Sort : any group of things related by having some thing in common, Kind, class, quality , type ; as dercription, character, variety ,

(١) المصباح المنير لأحمد الفيومي ٢/١٢٨ ط : بولاق ١٣١٦ .

(٢) الألفاظ الفارسية المعربة لأدي شير : ١٥٥ ط : المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٠٨ .

معنى النموذج في الدراسات الأدبية

النموذج في الدراسات الأدبية في مضمونه : هو ما يجمعه الكاتب من وجوه الفضائل أو ضروب الرذائل ، أو الإندفاعات العاطفية الإنسانية المستكنة في عالم المثال أو في أعماق الأشخاص .

وتلعب قدرة الكاتب على تصويرها ، وطريقته في إبرازها دوراً أساسياً في بعث الحياة من الناحية الفنية في « الصورة » بحيث تنبض بالحياة [1] وتتشكل متكاملة الأبعاد ، واضحة السمات ، بحيث يؤول الأمر بهذا النموذج إلى أن يكون اكثر اقناعاً ، واظهر صدقاً من نظائره في الواقع المشاهد [2] .

وللكاتب أن يحشد من الصفات التي تتوافر لها أبعاد النموذج الحيوية حسب قدرته الفنية ، وفقاً لمستلزمات نموذجه ، بحيث يؤلف ذلك كله قسمات واضحة للشخصية يصبح معها النموذج ظاهراً فيما يراد جعله مثالاً له من حيث « نموذجية الكمال » أو « نموذجية القصص » .

---

(١) حسن جاد حسن : الأدب المقارن ١٦٤ .

(٢) د. محمد غنيمي هلال : النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية ٧ .

وتكون وسيلة الفنان الكاتب إلى ذلك بعرض « مواقف » للشخصية يتضح من خلالها منهجه الذي يسلكه إزاءها من ناحية و « موقفها » العام هي من ناحية أخرى ،والصدق الذي يوصف به هذا العمل الفني أو ذاك هي « صدق فني » يعتمد على اقناع القارىء بامكان ذلك ، وليس صدقاً « واقعياً » منتزعاً مباشرة وبكل تفاصيله من حياة « شخصية » محددة .

فلا يعدو الكاتب الحقيقة حين يجمع في نموذجه أشتاتاً من صفات متفرقة في الطبيعة حتى يستطيع أن يقنع بها في تصويره الفني لأنه حينئذ يكون بصدد خلق شخصية متكاملة ، مقنعة لا يتاح الوقوع عليها في يسر في عالم الناس من حيث عمق الدلالة وإثارة الشعور أو الفكر تجاه هذه الدلالة ، من حيث السمو أو الاسفاف [١] .

ان النموذج مستوحى من الواقع الذي هو مصدر الشخصيات لكنه مقدم بصورة أجمل وأدق مما هو عليه،وإلا فما هو مبرر كونه مميزاً؟ ومع أنه لا بدمن شيء من التجوز هنا ، فإنه يمكن تشبيهه « بمثال » افلاطون الذي هو في الأساس القاسم المشترك بين ما هو مثال له [٢] وقد أدرك أرسطو مستلزمات العمل الفني عند ما قال عن الشاعر : إذا حاكى أناساً شرسين أو جبناء أو فيهم نقيصة من هذا النوع في أخلاقهم فعليه أن يجعل منهم أناساً ملحوظين فيما هم عليه [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ٨ .

(٢) محاورات أفلاطون ١١٢ .

(٣) أرسطو : فن الشعر ١٤٥٤ ب . س ٨ ، ١٤ .

وهذا الأمر لم يغب عن أذهان المفكرين العرب ، وان عبّروا عنه تعبيرا فجاً في قولهم « اعذب الشعر اكذبه » .

والشاعر العربي لا يقول مستحيلاً ، لكنه يبالغ في إبراز هذا الحدث أو ذاك ، هذه السمة أو تلك ليجعلهم الناس كما قال أرسطو « ملحوظين فيما هم عليه » .

الباب الأول

الفصل الأول

تفرقة بين النماذج والأمثال

يقيم الدارسون حدوداً معينة بين النماذج والأمثال ، ولعله لا بد من دراسة قصيرة في الأمثال معنى وتاريخاً ، ليكون الفرق واضحاً بين النموذج والمثل فيوضع كل أمر في نصابه الصحيح .

فالأمثال : جمع مثل ، وهو في الأصل بمعنى المثل وهو النظير ، يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، ثم جعل للقول السائر الممثل مضربه بمورده [1] .

ويعرفه ابن السكيت «ت٢٤٣هـ» بأنه : « لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ » [2] .

---

(١) الزمخشري : الكشاف ٣٩/٢ ، المستقصى من أمثال العرب ، له ايضاً
(٢) الميداني : مجمع الأمثال ٣/١ .

أما المبرد « ت ٢٨٥ هـ » فيرى أنه « قول سائر يشبه به حـــال الثاني بالأول »[1] .

ويطيل الفارابي « ت ٢٥٠ هـ » في كتابه « ديوان الأدب » في تعريف المثل فيقول « المثل ما تراضاه العامة والخاصة ، في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فـيما بينهم ، وفاهوا به في السراء والضراء ، واستدروا به الممتنعمن الدر ووصلوا به إلى المطالب القصية ، وهو أبلـــغ من الحكمة ، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص ... »[2] .

ويصبح معنى المثل واضحاً تماماً في تعريف المرزوقي « ت ٤٢١ » له في كتابه « شرح الفصيح » إذ يقول « المثل جملة من القــول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبـــه الظاهر إلى اشباهه من المعاني ، فلذلك تضرب وان جهلت أسبابها التي خرجت عليها »[3] .

ففي هذا التعريف توضيح لحقيقة المثل ،فهو يضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي ، كما يظل مثلاً يضرب وان جهل أصله ، ولا يغير لفظه في أية حالة من حالات استعماله[4]

والأمثال عند كل الشعوب مرآة صافية لحياتها ، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب ، وتقاليدها ، وسلوك أفرادها ومجتمعاتها وهي مـــيزان دقيق لتلك

(١) الميداني : ٥/١ .

(٢ - ٣) السيوطي : المزهر ٤٨٦/١ .

(٤) رودلف زلهايم : الأمثال العربية القديمة ٢٦ .

الشعوب في رقيها وانحطاطها ، وبؤسها ونعيمها ، وآدابها ولغاتها ، انها كما وصفه ابن عبد ربه « وشي الكلام ، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني ... تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء سيرها ، ولا عم عمومها حتى قيل : « أسير من مثل » [1]

وتعتبر الأمثال أصدق الوسائل الأدبية تعبيراً ، ولهذا تلقى ترحيباً من قبل جميع الأفراد على اختلاف ثقافاتهم ومبادئهم ونزعاتهم وطرق معيشتهم ، وتلقى ترحيباً انسانياً عاماً ، والمثل لا يعرف قائله في أغلب الأحيان كما قدمنا ، ذلك انه صدر في وقت ثم تناقلته الألسنة غير عابئة بمن قاله ، لأن هؤلاء المتمثلين يحسون صداه في أعماقهم ،فهو يتجدد تجدداً تاماً بتجدد الوقائع التي ينطبق عليها، لذا يورد الإنسان في بعض أحواله المثل تلقائياً عند تشابه موقفه الذي هو فيه بمضرب المثل .

ولأن المثل والحالة هذه يمثل خبرة الأمة عبر تاريخها الموغل في القدم ، فلكل أمة أمثالها التي تمثل خبراتها ،ولأمتنا العربية أمثالها القديمة المعبرة تعبيراً صادقاً عن خبرة الإنسان العربي القديم في صحرائه المترامية الأطراف في ظل ثقافته المحدودة .

وقد ألفت كتب كثيرة تجمع الأمثال العربية نذكر منها :

١ – كتاب الأمثال للمفضل الضبي المتوفى سنة ١٧٠ هـ [2]

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦٣/٣ .

(٢) طبع كتابه بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ

٢ - كتاب الأمثال لأبي فيد مؤرخ السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ [١] .

٣ - كتاب لأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ [٢].

٤ - كتاب الأمثال لابراهيم بن سفيان الزيادي المتوفى سنة ٢٤٩ هـ .

٥ - كتاب الأمثال لعمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

٦ - كتاب الأمثال لأحمد بن يحيى ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ .

٧ - كتاب الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الانباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

٨ - كتاب الأمثال لحمزة بن الحسن الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٥ هـ .

٩ - التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

١٠ - مجمع الأمثال لأحمد بن محمد الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ .

١١ - المستقصى في الأمثال للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ [٣]

من أمثال العرب في الجاهلية :

- عشب ولا بعير [٤] .

- اسمع جعجعة ولا أرى طحناً [٥] .

---

(١) طبع مرتين في القاهرة والرياض عام ١٣٩١ هـ .

(٢) طبع كتاب أبي عبيد وعليه شرح للبكري عام ١٩٠٩ م في الخرطوم ثم أعيد طبعه عام ١٩٧١ م بلبنان .

(٣) الكتب رقم ٤، ٥، ٦، لم تصل الينا ، أما السابع فما يزال مخطوطاً بينما طبعت الأربعة الأخيرة وبخاصة كتاب الميداني وكتاب الزمخشري اللذان طبعا أكثر من مرة ، وأهم كتب الأمثال : كتاب أبي عبيد وكتاب الميداني ، وكتاب ابن الانباري .

(٤) أبو عبيد : ٨٣ ، الميداني ٤٠٥/١ .

(٥) ابو عبيد : ١٣٦ ، الميداني ١٤١/١ .

– ان البغاث بارضنا يستنسر [١] .

– لا يجتمع السيفان في غمد [٢] .

– سبق السيف العزل [٣] .

– رمتني بدائها وانسلت [٤]

– ومهما تكن عند امرىء من خليقة　　وان خالها تخفى على الناس تعلم [٥]

– ولست بمستبق اخا لا تلمه　　على شعث أي الرجال المهذب [٦]

الامثال فى القرآن الكريم :

في القرآن الكريم الكثير من التعبيرات التصويرية والتجريدية والتشبيهات التركيبية وما شابه ذلك ، ويطلق عليها اسم الأمثال أيضاً [٧] .

يقول تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » [٨] ويقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » [٩] ويقول : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » [١٠] .

---

(١) أبو عبيد : ٢٤ ، الميداني ١/٨.

(٢) ابو عبيد : ١٧ ، الميداني ٢/٢٩ .

(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) : التمثيل والمحاضرة ٣٦ – ٤٠ . ديوان زهير ط: دار الكتب ،ديوان النابغة ط : دار الفكر .

(٧) الامثال العربية القديمة : ٣٦ .

(٨) سورة العنكبوت : ٤٣ .

(٩) سورة الحشر : ٢١ .

(١٠) سورة الحج ٧٣

وفي القرآن : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » [١]. شبه ثبات الايمان في قلب المؤمن بثبات شجرة النخل ، وشبه صعود عمله في السماء بصعود فروعها في الأجواء ، وفيه : « تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » شبه ما يكتسبه المؤمن من بركة الايمان ، وثوابه في كل زمان، بما ينال من ثمرتها كل حين وأوان ، ومثل هذا كثير في القرآن الكريم [٢] .

اخرج البيهقي في سننه الكبرى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان القرآن نزل على خمسة أوجه ، حلال وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وامثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال » :

ويستفاد من ضرب الأمثال في القرآن أمور كثيرة منها :

التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير ، وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فان الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص ،لأنها اثبت في الاذهان ، ولاستعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد .

الامثال في كلام الرسول ﷺ :

فشت الامثال في كلام الرسول ﷺ ، قصدا إلى الافهام وتوصلا إلى بسط دعوته للناس باسلوب ألفوه ونفذ إلى أعماقهم ويروي الامام أحمد في مسنده عن

---

(١) سورة ابراهيم ٢٤.

(٢) ابن القيم : اعلام الموقعين ٢/١٢٥ : ان الامثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به ، وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلاً تتضمن تشبيه الشيء بنظيره ، والتسوية بينهما في الحكم .

حذيفة بن اليمان الصحابي المشهور قوله : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً واحدا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا وترك سائرها قال : ان قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ، قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فاظهر الله أهل الضعف عليهم ،فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فاسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ان مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فاذا انطمست النجوم أوشكت أن تضل الهداة » .

وقال :«انما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك أما ان يحذيك ،وأما ان تبتاع منه،واما ان تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك ، واما ان تجد منه ريحاً خبيثة » .

وقد حاول المناوي في مقدمة شرحه على الجامع الصغير للسيوطي ان يحدد أهمية المثل في كلام رسول الله فقال : قد أكثر المصطفى ﷺ اقتداء بالقرآن من ضرب الأمثال فانه أوقع في القلب ، واجمع للخصم الالد ، ولشأنه العجيب في ابرازه الحقائق المستورة كثر في القرآن الكريم [1] .

ولكثرة الأمثال في القرآن والحديث أفردها بالتأليف جماعة وافرة من العلماء والأدباء على مر العصور ، من هؤلاء :

١ - الجنيد بن محمد المتوفى سنة ١٩٨ هـ صاحب كتاب« أمثال القرآن » [2]

٢ - الحسن بن عبد الرحمن بن اسحاق القضاعي صاحب كتاب « الأمثال

---

(١) فيض القدير ١/١٥

(٢) الفهرست ١٨٦ .

الكافية في القرآن » [1] .

٣ ـ الحسن بن عبد الله بن خلاد الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ صاحب كتاب : أمثال الحديث [2] .

٤ ـ عبد الله بن محمد بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٩هـ صاحب كتاب أمثال الرسول [3]

٥ ـ محمد بن الطاهر الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ صاحب كتاب المجازات النبوية [4] .

من هذا العرض للأمثال ، معناها وكتبها ، يتضح الفرق بين النموذج والمثل ، ويعتبر المثل مادة أولية للنموذج إذ يبقى محصوراً في بيئته المحلية إلى ان تتاح له موهبة فذة تتجاوز به سماته وخصائصه المحدودة لتنطلق به إلى النطاق الانساني محولة اياه في الوقت نفسه من مثل إلى نموذج .

وسمة أخرى يتسم بها المثل ، وتقوم فارقاً بينه وبين النموذج فالملحوظ أن المثل ينصب على فعل « لذا تتضاءل فيه أهمية الشخص القائل ، بل وأهمية الواقعة التي قيل فيها ، وانطلق منها ، وليس الأمر كذلك في « النموذج » اذ انه يدور حول « شخص » تدور حوله مجموعة من « الأفعال » التي تجعله هو ما هو ، لكن لا يمكن تجاهله في مجال تقويم تلك الأفعال بل الذي يحصل هو العكس تماماً ، اذ لا نستحضر « الأفعال » إلا بعد استحضارنا للصورة الواقعية أو الذهنية للنموذج

وفرق أخير ذلك انه ما دمنا قد قلنا ان الأمثال هي المادة الأولية للنموذج

---

(١) فهرست ابن خير ٧٥ .

(٢) الفهرست ١٥٥ ، معجم الادباء ٣/١٤٠ ، فهرست ابن خير ١٨٠ طبع كتاب الرامهرمزي بحيدر أباد ١٩٦٨ م .

(٣ ، ٤) الامثال العربية القديمة ٣٧ وكتاب الشريف الرضي طبع مراراً .

فينبغي الملاحظة ان هذا ليس مطرداً على اطلاقه ، ذلك انه ليس كل مثل يصلح أن يكون نموذجاً انسانياً ويتضح هذا أكثر ما يتضح في الأمثال الشديدة الالتصاق ببيئتها التي نشأت فيها ، فهي لهذا لا تستطيع الاستمرار في الحياة في بيئة أوسع وارحب ، لأن استمرارها رهن بموطن نشأتها ، فاذا انفصلت عنه اندثرت .

ولنضرب مثلا على مثل عربي تحول إلى نموذج عالمي هو مثل قيس بن الملوح، العاشق العذرى المشهور ، وأول ما يطالعنا في هذا الصدد المثل العربي « اعشق من قيس » هذا المثل نما نمواً ملحوظاً متجاوزاً بيئته الأصلية بفضل الشاعر الفارسي « نظامي » في قصته « ليلى والمجنون » فصار بذلك نموذجاً انسانياً عالمياً في الأدب الشرقي له ابعاده النفسية والفكرية والاجتماعية ، ثم انتقل إلى أدبنا الحديث بمسرحية شوقي .

بل ان قيساً أصبح نموذج الصوفي المتعبد الذي يتقرب إلى الله طبقاً لفلسفة نظامي الخاصة به ، المميزة له عن ذلك الطريق ، وقيس في هذا الأدب الصوفي ذو سمات لم تعرفها فيه البيئات العربية حين كان محصوراً في حدود الاسطورة أو التاريخ [١] .

---

(١) د . محمد غنيمي هلال : النماذج الانسانية ١٨ .

الفصل الثاني

أ — الانسان فى القرآن الكريم :

« لن يكون أمراً غريباً أن نقسم تاريخ الإنسانية إلى عصرين بارزين :

الأول : عصر كفاح الإنسان مع المادة والقوى الطبيعية والتغلب عليها نهائياً .

والثاني : وعصر الكفاح بينه وبين نفسه الباطنية ، حينما أخذ ضميره يبزغ ، وأخلاقه تتكون [1] .

وانسان الأديان هو انسان العصر الثاني ، وانسان القرآن ، وليست عنونتنا لهذا الفصل « بالإنسان في القرآن الكريم » إلا من قبيل التجوز ، ذلك انه ليس للانسان مقام محدد في الكتاب الكريم ينتهي عنده ، بل الحق القول ان القرآن كتاب للانسان ، بل هو بمعنى من المعاني : كتاب الإنسان ، يحلل أعماقه ، وينظم شؤونه ، ويشرع له ، وينير له سبله في حياته ، كل ذلك قائم على فهم عميق

---

(١) جيمس هنري برستد : فجر الضمير ص ٤ ـ ٥ .

للطبيعة الإنسانية ، كيف لا ، وهو كتاب من خالق الإنسان « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[1] للناس « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى »[2].

ويبدأ القرآن مع انسان العصر الثاني من البداية « وعلم آدم الأسماء كلها »[3]، انه الدين اذن ، ذلك الخط من النور الذي فصل بين المرحلة العضوية والمرحلة المعنوية في تاريخ الإنسان ، فغير بذلك ميدان الصراع في حياة الإنسان من خارجه إلى داخله « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، انا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا ، انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا »[4] .

وهذه النقلة البعيدة للانسان جاءت نتيجة لهبة الله سبحانه له تلك القوة الدّراكة التي جعلت منه « سميعاً بصيرا » وزودته بقدرات عظيمة في مجالي النمو المادي والمعنوي ، وانهت صراعه تماماً مع الطبيعة ،« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه[5] ».

وكان ذلك كله كرامة للانسان ، وانسان القرآن الكريم بالذات ، الذي جعل الله سبحانه كرامته ذات ثلاث شعب[6] :

---

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) سورة النحل : ٨٩ .

(٣) سورة البقرة : ٤١ .

(٤) سورة الإنسان : ١ - ٣ .

(٥) سورة الجاثية : ١٣ .

(٦) د . محمد عبد الله دراز : نظرات في الإسلام ٢٤ .

فكرامة هي كرامة آدميته « ولقد كرمنا بني آدم »[1] .

وكرامة هي كرامة عمله « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »[2] .

وكرامة هي كرامة مبدئه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[3] .

والشعبتان الاخيرتان من شعب الكرامة الإنسانية ثمرة للقوة التي انفرد بها الإنسان ، اعني القوة العقلية المميزة ، التي اقتضت أن يكون لأعماله معنى هو خير أو شر ، واقتضت بالتالي أن يكون مسؤولاً عن نتائج أعماله وآثارها « وان ليس للانسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى »[4] « كل امرىء بما كسب رهين »[5] .

وبقدر ما كان الإنسان كريماً عند خالقه ، سيداً في كونه، بقدر ما تعاظمت تبعته حتى أوشكت أن تكون تبعة كونية شاملة « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان »[6] .

هذه المسؤولية المتعاظمة ترفع اناساً إلى أعلى عليين ، وتنزل بآخرين إلى أسفل سافلين « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا

---

(١) سورة الاسراء : ٧٠
(٢) « التوبة : ١٠٥
(٣) « المنافقون : ٨
(٤) « النجم : ٣٩ - ٤١
(٥) « الطور : ٢١
(٦) « الأحزاب : ٧٢

الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »[1] .

وما يفتأ الجهد الإنساني المسؤول حائراً بين تأليه الهوى فالسقوط أو استغلال طاقاته المعطاة استغلالاً طيباً ، فالصعود إلى مستوى النظام الكوني الشامل ، والحظوة بالتالي برضا الخالق وتسديده .

على أن الله سبحانه وتعالى لم يذر الإنسان وحده ، فقد آثره بالعقل وآثره باستغلال الكون ثم قفى ذلك بايثاره في ارسال الرسل اليه ، لتثبيت خطاه في مضمار حياته ، والأخذ بيده في عثراته ، وتذكيره باهداف خلقه وكرامته عندما ينسى . ثم كان من فضل الله على الإنسان ان ربط مسؤوليته عما يفعله بفهمه لهذه المسؤولية بطريق النبوة فقال سبحانه :

« وان من امة إلا خلا فيها نذير »[2] .

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »[3] :

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم[4] .

فاذا زل انسان أو اخطأ بعد هذا كله ، فان باب التوبة مفتوح أمامه لينيب ويرجع ، ويعود إلى التزام الجادة : « ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم » « وهو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير » .

---

(١) سورة التين : ٤-٦

(٢) سورة فاطر : ٢٤

(٣) سورة الأسراء : ١٥

(٤) سورة ابراهيم : ٤

وآيات الرحمة والغفران لا أكثر ولا أبلغ ..

هذا ولم يقصد الإسلام من وراء ذلـــك أن يغير الطبيعة الإنسانية أو يقلب الإنسان ملاكاً ، فالله الخالق ، أدرى وأعلم ، وهو الذي اقتضت مشيئته أن تكون الطبيعة الإنسانية ما هي عليه ، لكنه قصد ان يعلم الإنسان ان بامكانه استغلال طاقاته الهائلة ، المنبثقة عن طبيعته في العمل المثمر ، والابداع النامي ، الذي يطور الإنسان ، والأشياء الواقعة في نطاق سيطرته ، لكنه مع ذلـــك وعلى رغم ذلك يبقى انساناً بما له وما عليه ، يسمو وينحط ، يصيب ويخطىء ، يثبت ويتزعزع ، يسير ويتعثر ، وتبقى جذوره في دنياه التي وجد فيها ، لذا لا يمكن تجاهل دنياه في مجال اصلاحه « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـــرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » [1] .

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » [2] كما لا يمكن تجاهل أخطائه وانحرافاته :

«خلق الإنسان من عجل » [3] «ان الإنسان لظلوم كفار » [4] «ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » [5] .

« ان الانسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعا» [6]

---

(١) سورة القصص : ٧٧
(٢) سورة الاعراف : ٣١ - ٣٢
(٣) سورة الاسراء : ١١
(٤) سورة إبراهيم : ٣٤
(٥) سورة العلق : ٦ - ٧
(٦) سورة المعارج : ١٩ - ٢١

(خلق الإنسان ضعيفاً » [١] .

ان هذا العرض الشامل والدقيق للانسان في القرآن الكريم هو الذي أتاح المجال لنشأة نماذج انسانية من بين شخصيات القرآن الكريم ، تمثل تارة الإنسان القوي المسؤول ، وأخرى الإنسان الضعيف المتعثر في تحمل التبعة ، أو المتنكر لها تماماً ايثاراً للجانب السهل من الحياة .

والملاحظ في النماذج الإنسانية القرآنية انها نماذج هادفة فهي لا تعرض تحقيقاً للون معين من ألوان الأدب ، أو لمجرد اظهار البراعة الفنية ، بل يبدو في قسماتها بوضوح الهدف الذي سيقت من أجله ، لذا فهي نماذج « أفكار »لا نماذج أدب جمالي

ثم إن في القرآن نموذجاً فريداً من البشر ،انه نموذج « الانبياء»وشخصيات هذا النموذج لا تخضع للمقاييس الانسانية او الأدبية العديدة التيقد يجوز دراسة النماذج الانسانية القرآنية على أساس منها . انه نموذج فريد ، ولعل من متممات هذا التفرد عدم دراسته على أساس من مقاييس مسبقة ، وهو ما سنعرض لـه من بعد [٢] .

ب ـ تفرقة بين النماذج في القرآن والنماذج في الكتب الأخرى [٣] :

من الطبيعي أن يكون بين النماذج الإنسانية التي يصورها الكتاب والشعراء

---

(١) سورة النساء : ٢٨

(٢) سيد قطب التصوير الفني في القرآن الكريم ١٧٦

(٣) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن أول من نبه إلى وجود النماذج الأدبية في القرآن الكريم هو المرحوم سيد قطب في كتابه « التصوير الفني في القرآن الكريم » وتفسيره « في ظلال القرآن » بيد أنه لم يفصل في بيان ما يقصده بالنموذج .

في الكتب الأدبية ، وبين النماذج الإنسانية الواردة في القرآن الكريم فرق واضح، هو الفرق بين الضعف الإنساني مهما أوتي من عبقرية وفن ، ودقة تصوير ، وسعة خيال والقوة الالهية القادرة كما بدت في الابداع الفنى في القرآن الكريم في تصوير دقيق ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية ، يوضحها ويبين كمائنها ، ويضفي عليها من السمات ما يجعلها تتخطى الزمان والمكان ، والقرون والأجيال .

لذلك استغنى القرآن الكريم عن ذكر التفصيلات والجـزئيات اذ اكتفى باللمحة والإشارة ، وايحاء العبارة للوصول إلى تحديد النموذج وتوضيحه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان ما تقدم يقتضي أن نحاول الفهم الأعمق للنماذج القرآنية الأدبية في ضوء المقاييس المعروفة في الأدب المقارن ، على ان لا نحكم تلك المقاييس في نماذج القرآن ، ذلك لأنها موضوعة لانتاج بشري أياً كانت درجة جودته ، فلا يمكن مقارنته بنماذج القرآن الكريم ، كتاب الله .

وهناك حقيقة أخيرة لا بد من التنبه اليها ، هي أن القرآن يعرض نماذجـه الإنسانية في شكل قصص ، تتجمع خيوطها لتصل إلى موطن « العقدة » التي هي ذروة العبرة والموعظة التي يقصدها القرآن ، لذا تبدو قصص القرآن مختلفة بعض الشيء عن القصص الفني المعروف ، فهي لم يقصد بها أن تكون شيئاً فنياً بـل التمست فيها مواطن الاعتبار ، بيد أن ذلك لا ينفي العنصر الفني فيها .

ويتصل بهذا القصص القرآني أمر آخر ، يدور حول حقيقة هذا القصص ، ان القرآن يصرح بأن هذا القصص تاريخي لا يمكن التشكيك فيه ، يقول تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء) وانما يدفعنا إلى طرق هذا الموضوع ما قام به بعض المحدثين في كتاب اسمه الفن القصصي في القرآن الكريم ، زعم فيه ان قصص القرآن يقصد منها العبرة والعظة ، لذا فهي لا تنحو نحو الحقيقة التاريخية ، انما تأخذ مادتها من البيئة التي نزلت فيها التماساً للتأثير في القوم الذين نزلت من أجلهم ،

ولأنها مستمدة من البيئة ، يداخلها ما داخل قصص تلك البيئة من اسطورية أو مبالغة ، أو تفصيلات لم تكن في التاريخ ، ويضرب مثلاً على ذلك بقصة اهل الكهف ، إذ لم يثبت عند الكاتب أن لها أصلا تاريخيا وبديهي تناقض هذا الرأي مع منطوق القرآن ، ومع مقتضيات الحقيقة وجلال القرآن، فما كان القرآن النازل لتغيير المجتمع الجاهلي ليزيف الحقائق ، ويقر الأباطيل طلباً لرضا والفة من نزل عليهم ، وقصة أهل الكهف تاريخية بدليل ورودها في آداب السريان وشعوب أخرى ، لذا اقتضى ذكر هذه النبذة دفعاً لكل اشتباه يمكن أن يأتي من هذه الناحية على أن « القصة » تختلف عن « المثل » فلا شك ان المثل خيال وان استند إلى حقيقة أو قياس .

الفصل الثالث

الملامح الانسانية في القرآن الكريم

تتميز نماذج القرآن الكريم الانسانية بأنها «شمولية» بمعنى انها لا تبدأ من شخص ، بل من « فكرة » تصدق على نمط معين من الناس . ومع ان « نماذج الأشخاص» موجودة في القرآن في كثير من المواطن إلا أن النوع الأول أكثر وأغلب .

ويثير النوع الأول من النماذج بعض المشكلات ، فإن النموذج الأدبي المعروف في فن الأدب ، يبدأ من شخص ثم ينتهي بأن يكون نموذجاً لنمط معين ،وليس كذلك نماذج « المؤمن » و « الكافر » و « المنافق » في القرآن الكريم ، فانها كما سبق ان قدمنا تبدأ من فكرة تتجمع حولها مجموعة من السمات الشخصية مكونة نموذجاً أدبياً يتعدى الطابع المحلي لهذا الشخص او ذاك .

على ان هذه المشكلة سرعان ما تزول إذا راعينا اعتبارين أساسيين :

١ ـ الشمول القرآني :وهو أمر ثابت ، فالقرآن لا يتوجه إلى انسان معين، ولا إلى بيئة معينة ، بل يتوجه إلى الناس كل الناس ، أو إلى أمة من الناس هم المؤمنون مثلاً ، حتى عندما يخاطب القرآن النبي ﷺ فانما يريد من وراء ذلك ان يحدد مساراً معيناً للأمة الإسلامية من خلال النبي .

والشمول هذا يلقي ظلاله على نماذج القرآن، فصحيح انها لا تبدأ من شخص لكنها تتعدى كما قلنا البيئة المحلية والسمات الشخصية الضيقة ، فتصدق على نوع معين من الناس في كل زمان ومكان .

٢ ـ الصدق القرآني : فمنزل القرآن هو الله سبحانه ، وهو خالق الانسان، والعالم به ، « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »ومن منطلقي الصدق العميق، والعلم الدقيق تنتهي المشكلة تماماً ، فإن القرآن يتحدث عن نوع معين من الناس وكأنما يتحدث عن شخص معين لدقة العلم بذلك النوع ، ويتحدث عن شخص معين وكأنما يتحدث عن نمط عام في الأمكنة والعصور لصدق الوصف أيضاً فيما نشاهده ونتأمله فيمن حولنا وما حولنا من ناس وأشياء .

ان الصدق القرآني يجعل من هذا أمراً مفروغاً منه ، ويرد على كل إشكال يمكن ان يعترض طريق الباحث في نماذج القرآن .

و « الصدق » هذا مضافاً اليه « الشمول » يجعل من شخوص القرآن الكريم وفئاته التي يعرض لها نماذج صالحة تماماً للغرض الذي سيقت لأجله ، بل يجعلها « مثالية » في صدقها ودقتها وتعديها للانحصار في الزمان والمكان .

الباب الثاني

نماذج الطبيعـــة البشريـة

الفصل الأول : الضعف والقوة الإنسانيان

الفصل الثاني : الاعتزاز بالمال والولد .

الفصل الثالث : المتابعة

الباب الثاني

نماذج الطبيعة البشرية

نوه القرآن الكريم في كثير من آياته بطبيعة الإنسان وما لهذه الطبيعة من خصائص ، ومدى تأثير انعكاساتها على صاحبها بحيث لا يستطيع الخروج من اطارها ، وتظهر هذه الإنعكاسات من خلال تصرفات الإنسان ازاء كل ما يتصل به في حياته ، وما ينتابه فيها ، ومهما حاول الإنسان الخروج عن طبيعته ، بطمس معالمها بفعل طغيان بعض الغرائز ، واتباع ما توسوس به النفس الامارة بالسوء ، فلا بد من أن تظهر آثار طبيعته في الكثير من مواقفه.

ويكمن في طبيعة الإنسان ميل إلى بعض الأشياء التي يعتبرها محببة إلى نفسه إلى جانب كونها من ضروريات حياته ، فيحاول التوصل إليها بمختلف الوسائل .

كما انه منذ بدء حياته يحتاج إلى غيره ، فيبدأ بالمحاكاة محاولاً الاقتداء بمن يعيش معهم ، يسلك سبيلهم ، ويعمل على منوالهم ، ولا شك أن لهذا الاقتداء اثراً في نفسه وتصرفاته تبعاً لسلوك المقتدى به ، ومن الصعب إزالة أو تغيير ما علق في ذهنه من مفاهيم ، وإقلاعه عن العادات التي مارسها ، إلا إذا أتيح له

رجل فذ يأتي بالبراهين والحجج التي تلقى قبولاً في نفسه .

ولذلك يظهر الضعف والقوة الإنسانيان كنتيجة حتمية للأطوار التي يمر بها المرء،ويبدو تعلق الإنسان ببعض الأشياء التي يراها ضرورية لحياته ، واستمراراً لجنسه من خلال اعتزازه بالمال والولد .

أما محاكاته لغيره ، واقتداؤه بمن حوله فتتضح من تقليده ومتابعته لأعمال الآخرين ، وتبني أفكارهم والدفاع عنها .

الفصل الأول

الضعف والقوة الانسانيان

إن الأطوار التي مر بها الإنسان الأول والأطوار التي يمر بها كل إنسان بعده تدل بوضوح على أن الإنسان ضعيف في نشأته بالنظر إلى المادة التي تكوّن منها ، وهو إلى جانب كونه ضعيفا قوي بعـــد أن يتعدى طور الضعف ثم يرتد إلى الضعف مرة أخرى .

وقد أشار الله سبحانـــه إلى ذلك بقوله : « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العلي القدير » (الروم / ٥٤) .

وقال : « وخلق الإنسان ضعيفـاً » (النساء / ٢٨) . وقال : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن » (لقمان / ١٤) ، وقال : « بـــدأ خلق الإنسان من طين » .

والذي يرفع قيمة الطين ما ينفخه الله فيه من روح تصير الروح انسانـــاً وتمنحه الخصائص التي تميزه عن الحيوان ، ذلك أن جنين الإنسان كما قال أكثر العلماء يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية ، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا

آخر بفضل النفحة الالهية ليصبح قابلاً لما هو مهيأ له من الكمال وتحمل المسؤولية .

وقد ذكر القرآن الكريم أطوار وجود الإنسان ونموه مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية فقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم جعلنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ،فخلقنا المضغةعظاماً. فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

والخلق الآخر ، هو مجـال تميز الإنسان ، وتحقيق إنسانيته ، فبه يتحول الكائن العضوي البحت إلى مجموعـــة منتظمة من الإحساسات والحواس والأعصاب ، يغاير فعلها فعل الحيوان ، بيد أنه يكمن فيها ضعفه وتجاهله وعناده ...

وفي شأن خلق الإنسان يقول رسول الله ﷺ في حديثه الذي رواه عبدالله ابن مسعود: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربـع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنـــة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار »[2] .

إن الإنسان النموذج عندما تكون الدنيا مقبلة عليه صحة ومالاً ينسى خالقه

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢ - ٢٤ .

(٢) شرح البخاري ٥ - ٣١٤ .

وما يتوجب عليه نحوه ونحو الخلق ، فلا يشكر نعمه ، ولا يأتمر بأوامره . ولا يجتنب نواهيه ، ولا يدور في خلده أن الأيام يمكن أن تقلب له ظهر المجن ، معتمداً على قوته وماله ، بل يتمادى في غفلته إلى أن يصاب بمرض ، أو يقع في مأزق يشعر انه ضعيف بحاجة إلى مدد الهي يعينه على الخروج منه فيدعو الله ، نادماً على ما جناه ، عازماً على نيل رضاه ، وهذا عود إلى الطبيعة الإنسانية يستبين فيها ضعف الإنسان مهما تظاهر بالقوة ومهما كانت قوته ، فإنه عاجز أمام كثير من الظواهر الطبيعية ، وازاء الأحداث التي تصيبه ، ولكن هذا الضعف لا يلبث أن يختفي عندما تزول الصعاب ، وينكشف الضر ، فيعود الإنسان إلى ما كان عليه من غفلة ، كأنه لم يدع الله إلى ضر مسه .

قال تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » [1] .

وهكذا وفي وقت تطرأ على الإنسان أطوار نفسية مختلفة يتحول من جبار مسيطر ، إلى ضعيف مستنجد ، أو العكس ، تحقيقاً لقوله تعالى: «وخلق الإنسان ضعيفا » وقوله :«وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذاخوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار » [2] .

وفيما يلي نماذج عن الضعف والقوة الانسانيين .

أ – النمرود :

آتاه الله الملك ، لكنه طغى ، وادعى الألوهية ، ولما ظهر إبراهيم عليه

---

(١) سورة يونس : ١٢ .
(٢) سورة الزمر : ٨ .

السلام يدعو الناس إلى عبادة الله ،دعاه النمرود وسأله عن الله الذي يدعو اليه ، فأجابه إبراهيم بـأن الله هو وحده الذي يمنح الحياة ويسلبها ، وينشىء الخلق ويفنيه ، ويبدع العوالم الحية ويميتها [١].

لكن النمرود أخذته العزة بالإثم فكابر ، وجادل بالباطل وقـال أنا أحيي من أشاء بالعفو عنه وأميت من أشاء بأمري .

أجابه إبراهيم بقوله : إن الله سخر الشمس وجعل لها نظاماً لا تحيد عنـه فهو يأتي بها من المشرق ، فإن كنت تدعي قديراً ، وكما زعمت الها فغير هـذا النظام الذي جرت به سنة الله وأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، إذ بان ضلاله واعترف بضعفه الإنساني ، قال تعالى : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قـال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قـال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » (البقرة/٢٥٧) .

ب - فرعون :

عاش فرعون في بلاد النيل ، لكنه طغى فيهـا وتكبر ، وعصى وتجبر ، وبلغ به طغيانه ان صور من طبيعته البشرية الناقصة الها وفرض على النـاس عبادته من دون الله ، وانزل الخسف ببني إسرائيل ، يذبح الأبناء ويستحيي النساء ، ويتحدى إرادة السماء ، فكان لا بد والحالة هـذه من رسول يأتي من عند الله يعيد الأمور إلى نصابها ، بعـد أن استشرى الفساد في الأرض على يد فرعون ، فأرسل الله موسى ، وشد أزره بأخيه هارون ، وأمرهما الله « أن اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً ... »

---

(١) قصص القرآن : ٤٥ .

لكن فرعون غضب وثار ، وقال لموسى : «لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » فلم يبال موسى بقول فرعون لأنه معتمد على قوة الله وحمايته له فقال : « أولو جئتك بشيء مبين » فقال فرعون : إذن فأت بها إن كنت من الصادقين ...

وقد أشاع أن موسى ساحر ، وأراد فرعون أن يظهر قوته بالسحرة الذين جمعهم حوله ، وضرب موعداً لموسى لإظهـار صدقه وقوته ، وفي اليوم المحدد أقبل السحرة مدفوعين ، وقالوا لموسى اما ان تلقي واما أن نكون أول الملقين، فلم يبال موسى بسحرهم وطلب منهم أن يلقوا حبالهم وعصيهم فإذا هي حيات تسعى ، ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي بقدرة الله تبتلع مـا افتعله السحرة ، وإذا بالسحرة يخرون ساجدين لله تائبين عما صنعوا ، فاغتاظ فرعون لفعلهم وهددهم بأسوا مصير ، بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب والتمثيل بهم ، لكنهم لم يأبهوا لتهديده،لأن قلوبهم قد زالت عنها غشاوة الضلال وعمرها نور الإيمان .

واستمر موسى بدعوته ، وفرعون من جانبه يعمل ويأتمر على قتله والانتقام من أتباعه،فسار موسى وقومه فارين من وجه فرعون الذي عزم أمره،ولكنهم وقفوا أمـام البحر ، ووراءهم فرعون وجنوده جادين في طلبهم ، وفي الوقت الحرج أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فسار القـوم آمنين ، وأراد فرعون وجنوده أن يتبعوهم فانطبق البحر عليهم ، ولمـا حاق الخطر بفرعون خانته قوتـه ، وأدرك حقيقة ضعفه ، ورأى أن لا حول له ولا قوة ، وتذكر خالقه في هذا الوقت فقال : « آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

لكنه ايمان اليائس الذي ليس له حيلة من أمره ، والذي لم يأبه من قبـل لأي دليل أو برهان ، مدلا بقوته ، متمادياً بطغيانه وجبروته .

أصحاب الجنة :

جماعة ورثوا جنة (جنة دنيا لا جنة آخرة) وكان للمساكين حظ من ثمرها أيام مورثها الطيب الصالح ، ولكن هذه الجماعة كانت بسيطة ساذجة فأرادوا الكيد للمساكين، إذ أرادوا الاستئثار بثمرها وحرمان المساكين حظهم ،فعزموا أمرهم على أن يجنوا ثمرها عند الصباح دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين ، وأقسموا على ذلك وباتوا على ما اعتزموه ، ولكن الله ساهر لا ينام ، يدبر لهم غير ما يدبرون فطاف على جنتهم طائف من الله وهم نائمون فأصبحت كالصريم ، ولما أصبحوا مبكرين نادى بعضهم بعضاً لينفذوا ما عزموا عليه أمرهم فانطلقوا يتحدثون في خفوت كي لا يسمعهم أحد ، وغدوا على حرد ظانين أنهم قادرون على المنع والحرمان ، فلما رأوها تذكروا ربهم وعرفوا ضعفهم ، وان تظاهرهم بالقدرة ذهب هباء ، فعادوا إلى أنفسهم . وثابوا إلى رشدهم ، واعترفوا بأنهم ضلوا الجادة وأنهم حرموا أنفسهم ، وهنا تقدم أوسطهم – يظهر انه كان لهرأي مخالف لرأيهم – ويذكرهم ما كان من نصحه لهم بقوله : ألم أقل لكم « لولا تسبحون » فأقروا بظلمهم ، وأراد كل واحد أن يتنصل من التبعة فلام بعضهم بعضاً ، وهذا هو الضعف الإنساني ، إذ إن الشريكين عندما يصيبها خير يدعي كل واحد منهما انه السبب فيه ، وإذا ساءت العاقبة وجه اللائمة عليه ، ولكن اللوم لا ينفع فالكل يعترف بالخطيئة عسى الله أن يغفر لهم ويعوضهم عما فقدوه.

(راجع سورة القلم ١٧ ـ ٣٣ .)

الفَصْـلُ الثّـاني

الاعتزاز بالمال والولد

لا شك أن للمال والولد من الناحية الإنسانية ، وفي قوام الدنيـــا ومباهج الحياة شأناً كبيراً .

فالمال وسيلة يتوسل بها المرء إلى تأدية واجباته ، والوصول إلى غاياته وإلى رقي الإنسانية ، وهو بهذا التعريف فضل يدخر ونعمة محببة ، وخادم أمـــين يعين صاحبه على قضاء حاجاته .

والولد صورة الإنسان تتكرر حفاظـــاً على النوع البشري من الإنقراض ، وقطعة من الوالدين له في نفسيهما محبة ، وفي قلبيهما عطف وحنان .

وإذا كانت حياة الإنسان أعز شيء يتعلق به ، وروحه اثيرة عنده على كل ما عداها ، فإن الذي يلي ذلك في الأهمية عنده ماله وولده ، وقد يفضلهما على نفسه عن قصد أو عن نزوع لا شعوري ، .

وإن القرآن الكريم قد اكثر من ذكر المال والولد تجاوباً مع غريزة الإنسان في نزوعها إلى حبها ، وفي ذكره لهما توجيه إلى تصحيح الأغراض المتعلقة بها

حتى يبقيا فضـــلا ونعمة ووسيلة ، لأن ذوي النفوس الضعيفة يتخذون المال غاية لا وسيلة وتصبح له سيادة على نفوسهم .

المال والولد في نظر الاسلام :

مع كون المـــال والولد فتنة يفتتن بها الناس لقوله تعالى : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » (الأنفال / ٢٨) .

وقوله : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » (التغابن ١٥)

والفتنة تكون بالشر والخير لأنها ابتلاء من المولى سبحانه قـــال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة» (الأنبياء/ ٣٥) فإن الإسلام كما قلنا يعتبر المال خيراً إذا ما روعيت في تحصيله وانفاقه الوسائل المشروعة ، ولذلك فـــإن القرآن الكريم ذكر المال انه خير بخمسة عشر موضعاً ، مثال ذلك قوله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » (البقرة / ١٠٠) .

- «قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين » (البقرة / ٢١٥).

- « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وان تصدقوا خير لكم» (البقرة/ ٢٨٠) .

- « ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير » (هود / ٨٤).

- « فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » (ص / ٣٢) .

- « وإذا مسه الخير منوعاً » (المعارج / ٢١) .

- « وإنه لحب الخير لشديد » (العاديات / ٨) .

- « إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف» (البقرة / ١٨٠).

- « مناع للخير معتدأثيم » (القلم / ١٣) .

- « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » (الزلزلة / ٧) .

وأشار القرآن كذلك إلى مكانة المال والولد فتارةيذكرهما على سبيل الإمتنان والترغيب فيهما والثناء على أهليها ، وطوراً يذكرهما في أسلوب التحذير منهما والترهيب لهما لأن في تصرف الإنسان ازاءهما مجالاً للمدح أو الذم لهما .

فالذين يعتبرون المـال والولد نعمة من الله تستوجب شكره واداء حقه فيما يمتن الله عليهم : « وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » (الاسراء / ٦) . « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (النساء / ٩٥) .

« وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهودا » المدثر / ١٣) .

« ولئن شكرتم لأزيدنكم » (إبراهيم / ٧) .

أما الذين يغترون بالمـال والولد ويفاخرون بها فيندد الله بهم « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » (سبأ / ٣٥) .

« إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار » (آل عمران / ١٠) .

« ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين » (القلم / ١٠ — ١٤) .

«يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء / ٨٩).

والرسول ﷺ يشير إلى المال ومكانته فيقول « إن هذا المال خضرة حلوة ،

فمن اصابه بحقه بورك له فيه ، ورب متخوض فيما شاءت به نفسه من مـــال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار » [١] .

وعن انس رضي الله عنـــه قال : قالت أم سليم رضي الله عنها لرسول الله ﷺ : « انس خادمك ادع الله له قال : اللهم اكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته » [٢] .

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ يا حكيم : ان هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفسه بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفسه لم يبارك له فيـه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبـع ، واليد العليا خير من اليد السفلى [٣] .

وقد جمع القرآن الكريم بين المال والولد في ثمان وثلاثين آية ولدى النظر في الآيات نجد أن القرآن يذكر المال دائماً قبل الولد .

- « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (الكهف / ٤٦) .

- « اعلموا إنما الحيـــاة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » (الحديد / ٢٠) .

- « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » (سبأ /٣٥) .

- « شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » (الفتح / ١١) .

فهل جاء هذا السياق القرآني عفواً دون قصد، أم أن الحكمة في تنسيق الله

---

(١) الترمذي : ٤ - ١٦ .
(٢) البخاري ٩ - ٢٠٦
(٣) البخاري ٩ - ٢٤٢ .

لكتابه اقتضت هذا التقديم ، ومع كوننا نعتبر الولد أعز مكانة من المال فما هي الحكمة في هذا السياق ؟

يمكن أن يكون لذلك أسباب أهمها :

١ ـ ان المال أسبق في الوجود على الإنسان فقبل خلق آدم عليه السلام كان في الدنيا حيوان وطير ومعادن ، وعلى هذا يكون تقديمه في الآيات تبعا لسبقه في الوجود ، نستقي ذلك من قوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها » والأسماء في أسماء ما كان في الدنيا من حيوان وشجر وطير وغيرها .

٢ ـ ان رغبة الناس في المال أكثر من رغبتهم في الولد فكل إنسان يطلبه من مظانه ، ويسعى إليه إلا القليل من الناس الذين آثروا الآخرة على نعيم الدنيا ، اما الولد فبعض الناس يرغب فيه دون البعض الآخر ، وكان العرب في جاهليتهم يقتلون أولادهم خشية الفقر مع حرصهم وتهافتهم على المال ، وفي عصرنا هذا نجد من يرغبون في المال كل الرغبة بينما يكرهون الذرية أو يحددونها لأنهم لا يريدون تحمل تبعاتها ، أو يعتبرونها عبئاً ثقيلاً ، ولهذا لجأ بعض الأفراد بدافع من أنفسهم أو استجابة لدعوة حكوماتهم إلى استعمال وسائل منع الحمل بغية تحديد النسل .

وقد سجل القرآن الكريم على الناس حب المال أكثر من غيره فقال : « وتحبون المال حباً جماً » (الفجر / ٢٠) .

وإذا كان المال حبيبا إلى الناس يسعى إليه معظمهم ،ويتنافسون فيه ليحظى كل منهم بكمية أوفر ، فمما لا شك فيه أنه مجال للإعتزاز لدى المغنيين الذين يجحدون نعمة الرزاق ، يتباهون بالمال والولد غافلين أنها نعمة تأتي وتزول ، وقد سجل القرآن هذا الإعتزاز الانساني بها من خلال نموذج رجلين أحدهما مؤمن بربه ، غض طرفه عن زخرف الحياة الدنيا ، والآخر كافر شحيح جافي

الطبع ، بسط الله في رزقه ، وزاد في ماله ، ورزقه بنـــين وأولادا ومع ذلك اطغته النعمة ، فما زاد على ذلك إلا كفرانا وما أثمرت عنده إلا طغياناً، رأى صاحبه فنال منه بقارص اللفظ وتباهى عليه بماله وبنيه ، ودخل جنته وهو يقول له : إنه خير دائم وما أظنه ينفد ، وان الساعة التي ترجف بقيامها ما أحسبها واقعة ، على اني لو جاريتك في فكرك فإنني لا بد واجد عند الله خيراً من هذه الجنة ، فكما آثرني في دنياي بالخير يؤثرني في آخرتي كذلك ، رد عليه صاحبه انك كفرت بالله الذي خلقك بانكارك البعث بعد الموت ، ان الله الذي خلقك من سلالة من طين ثم مرت بك أدوار إلى أن أصبحت إنساناً ، أتعجز خالقك أن يبعثك بعد موتك ؟ حسبي الله لا اشرك به أحـــداً ، انك تعيرني بالفقر ، وتكاثرني بالمال فعسى أن يكون ربي قد أعد لي جنة خيراً من جنتك، ولا تأمن على جنتك من العواصف وتقلبات الأنواء ، وقد يغور ماؤها في أعمق الأرض ، فتطلبه فيعز عليك .

ودخل صاحب الجنة جنته فراعه ان رآها رسوماً عافية ، فأخذ يقلب كفيه قائلاً : « يا ليتني لم اشرك بربي أحداً » .

الفصل الثالث

المتابعة

المتابعة ظاهرة إنسانية ،ونزوع بشري ، واستجابة لكوامن النفس في حداثتها تبعاً لحاجاتها ، وتأميناً لانطلاق الإنسان في حياته ، وأطوار نشأته .

فمنذ طوره الأول لا يقوى على الإستقلال بذاته ، ولا يستطيع تأمين متطلباته ، وليس له دراية بمن حوله ولا يدري كيف يتصرف ازاء ما يتصل به في بيئته فيبدأ بالمحاكاة محاولاً تتبع من له صلة به أو من له تأثير عليه في حياته ، فيتابعه في حركاته وتصرفاته ، وأكثر ما تكون هذه المتابعة في طوري الطفولة والحداثة ، أي قبل اكتمال النضج العقلي ، والاستقلال الذاتي في تفحص الأشياء وتفهمها تلقائياً ذاتياً .

وكثيراً ما نجد متابعة البنت لأمها ، والإبن لأبيه والتلميذ لأستاذه ، وقد تبقى المتابعة رائدة للكثير ممن جاوزوا طور الحداثة بسبب تأثير شخصية المتابع أو آرائه على التابع أو لعوامل داخلية في نفسية المتابع فيصعب عندها إقلاعه عما اعتاد عليه ، ويكون أشد صعوبة إذا ما كانت متابعته صادرة عن تعلقه بقريب أو بعادات ورثها بحكم البيئة والوراثة عن أبيه ويكون أكثر وأكثر

صعوبة إذا ما سادت المتابعة مجتمعاً بأسره ، يعتبر أفراده ما هم عليه هو الحق وان واجبهم يقضي بالحفاظ عليه ولو كان فيه هنات ، ويرفضون ما هو أحسن منه لأن من واجب الأبناء الالتزام بما ورثوه عن الآباء .

وقد أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تأثير الأبوين على ولدهما فقال : « ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فالرسول يخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ، لأن الطفل يكون خالي الذهن ، كصفحة بيضاء يمكن أن يسيطر عليها أي شيء ، ويبقى تأثير ذلك حتى طور الرجولة واكتمال العقل .

ومن اكتمل عقله يمكنه أن يتأمل ويعيد النظر في كل ما حشد في عقله من معلومات ، وما تمرس عليه من عادات ، ويستطيع إذا ما تجرد في أحكامه ـ مؤثراً العقل على العاطفة ـ أن يزيل ما علق بفطرته من شوائب .

لكن الكثيرين ممن تتحكم العاطفة بهم وتدفعهم إلى التصلب في مواقفهم مع علمهم انهم على خطأ ، ويعتبرون بالتالي اتباع ما ورثوه عن آبائهم ضرباً من الوفاء لهم ومن هنا جاء تعنت الكفار برفضهم دعـوة الأنبياء ـ واستنكافهم عن قبول ما انزل الله .

وقد سجل القرآن ذلك بقوله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » (البقرة / ١٧٠) .

ـ « قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » (المائدة / ١٠٤) . فهم يكتفون بما عندهم من آبائهم لا يريدون جديداً . ولو كانوا على خطـأ من أمرهم ، فهم يعزون هذا الخطأ إلى آبائهم وكأنه لا ضير عليهم وكأنما فعل آبائهم لهذا دليل على فضيلته « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا » (الأعراف / ٢٨) .

ويستهجنون دعوة الرسول اليهم بقولهم له : « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » (يونس / ٧٨) .

ويصرون على عدم تقبل الدعوة وعلى بقائهم على ما هم عليه : « قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (لقمان / ٢١) ذلك أن التفكير يكون أحياناً متعباً لدى من لم يعتده .

ولا يكتفون برفضهم الدعوة بل يحرضون بعضهم على الرسول لينالوا منه « ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » (سبأ / ٤٣). ويعتبرون ترك ما كان يعبد آباؤهم جريرة بحقهم وبحق آبائهم فيتوجهون إلى الرسول بانكار دعوته : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا » (الأعراف / ٧٠) .

ويسجل القرآن الكريم تمسكهم هذا بقوله ، « ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » (هود / ١٠٩) وينعي عليهم قصر نظرهم ونظر آبائهم كونهم تركوا عبادة الله خالقهم ، واتبعوا ما صنعوه بأيديهم ، وعلى خطأ الآباء سار الأبناء ، وكان من واجب الأبناء أن يدققوا فيما ورثوه وتعلموه من آبائهم ويتبينوا الخطأ من الصواب فيتبعون الحق وينأون عن الباطل ، لكن غشاوة الجاهلية رانت على القلوب والأبصار فجعلت العقول معطلة ، وساروا وفق هواهم فذهبوا في الشطط إلى أبعد ما ذهب إليه آباؤهم « أتجادلونني في اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » (الأنعام / ٩١) . « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » (يوسف / ٤٠) .

« أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » (البقرة / ١٧٠) . وليس أضر على المجتمع من طائفة المتابعين المقلدين ، ذلك أن المتابع معطل للمحرك الأول في الإنسان الذي يميزه عن الحيوان ، والمتابع متحجر يقف حجر عثرة في سبيل التقدم والرقي الإنساني .

ولهذا فإن إيمانه غير مقبول ، بمعنى أنّ المسلم الذي يتابع أبويه المسلمين لا يكون ايمانه حقاً متى بلغ الحلم ومرحلة النضوج العقلي إلا إذا اطلع على الإسلام وتعاليمه واقتنع بها ، فيكون ايمانه عن دراية وتعلم .

وعرض القرآن الكريم لهذا النموذج من الناس شيق وموح إذ أنه في سياق عرضه يبين كيف تنتهي انسانية الإنسان عندما يرفض أن يفكر ، و كيف يصبح ضعيفاً مضحكاً عندما تتحول حياته تفكيراً وسلوكاً إلى مجموعة من العادات ، وليست كل عادة شراً ، وهـــذا عمل العقل في الإختيار بين الحسن والسيء ، وتأتي المصيبة عندما لا يعود العقل ذلك ، ولعل العادة الوحيدة التي على الانسان أن لا يحطمها هي عادة التدبر والتفكير فيما يأتي ويذر من أمور حياته .

البَابُ الثالث

نماذج العقيدة

الفصل الأول : المؤمن

الفصل الثاني : الكافر .

الفصل الثالث : المنافق .

الباب الثالث

نماذج العقيدة

الإنسان كائن «معتقد» بالطبع، ومعنى ذلك انه خلق على ان يكون ذا عقيدة في صحة شيء، وفي بطلان آخر، فمنذ وجد الإنسان على ظهر البسيطة اشرأب وتسامى بنفسه ليستشرف على قوة أكمل من قوته، يدين لها بالخوف والحب والطاعة، وهو ما يعبر عنه «بالعاطفة» ولعلها أسبق العواطف التي غرست في النفس الإنسانية.

وعندما حاول بعض علماء الاجتماع الوضعيين في القرن الماضي أن يثبتوا ان الدين طارىء على حياة الإنسان بدراسة بعض المجتمعات البدائيـة في استراليا، رد عليهم عالم الاجتماع الديني المشهور «سميث» بتتبع الظواهر الدينية في حياة أقزام أفريقيا، وهم أشد بدائية من القبائل الاسترالية [1].

ويرى الباحث الفيلولوجي المعروف «ماكس موللر» ان الإنسان يعرض له

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: الدين ٥٦، علم الاجتماع الديني للخشاب: ٢٧.

في حياته العديد من الأشياء والظواهر ، من شأنها ان تدفعه إلى التماس الحقائق التي تسود هذه الظواهر وتقودها وتسيطر عليها ، فيضطر معـــها إلى الاعتقاد بصحة عدد كبير من الحقائق الوجودية التي يغلبها ويرجحها استقراؤه للوجود ، وتفسيره لبعض الظواهر الطبيعيه ، وعلى هذا فـــلا بد أن يكون الاعتقاد هو أقدم النزعات النفسية والعاطفية في الإنسان من حيث أنه دائم النزوع إلى التسامي شعر بذلك أو لم يشعر [1] .

وقد عرض لنا القرآن الكريم نموذجاً من نماذج الشوق الانساني إلى الكمال على لسان أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام مكنتها انجذاب الإنسان للخضوع للقوة التي هي أكمل من قوته وان كانت هذه القوة نسبية ، ومن هنا جاءت عبادتـه لظواهر الطبيعة وللشمس والقمر ، قـال تعالى : « واذ قال ابراهيم لابيه آزر ، أأتخذ أصناماً آلهة ، أني اراك وقومك في ضلال مبين ، وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض، وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال اني لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قـال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي لـلذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا مـــن المشركين » [2] .

ونفهم من النموذج السابق ان الإنسان يرى ان من مستلزمـــات الألوهية الاتصاف بالقدرة والدوام ولا يتوفر هذا إلا لله سبحانه ، ذلك ان الظواهر الأخرى « أفلت » في نظر ابراهيم ، وبقيت قدرة الله سبحانه المتمثلة في الظواهر المخلوقة وفي سرمدية الوجود والخلق ، هذا سبب أول من أسباب الأعتقاد ويتلوه

---

(١) المنوفي : وحدة الدين والفلسفة والعلم ٢٥ .
(٢) الانعام : ٧٥ - ٧٩ .

السبب الأهم وهو ان الإنسان لا يستطيع أن يحقق انسانيته في حياته إلا بالايمان سلباً أو ايجاباً ، ذلك ان الإيمان بهذا الشيء أو انكاره ، هو الذي يهب أعمال الإنسان معنى ينقذها من الآلية والتفاهة والعبث... وبمعنى آخر فان الإنسان يحتاج لكي يعمل إلى دافع يدفعه ، والاعتقاد بصحة هذا أو ذاك يشكل الدافع الأولي لهذا العمل أو ذاك ، وهذا الجانب من الإيمان ينظم علاقة الإنسان مع نفسه ثم يأتي أمر الإيمان من الناحية الاجتماعية ، إذ هو الذي يعطي الانسان موقفاً من الناس والأشياء ، فيقسم الناس إلى مؤمن بالقضية التي يؤمن بها ، ومنكر لها ، ويعاملهم على هذا الأساس في إطار الأدب الاجتماعي .

وفي اكتمال نظرة الانسان إلى نفسه وإلى الآخرين من خلال القضية التي يحيا لها ، يتشكل النموذج الذي يمكن ملاحظته ودراسته أدبياً .

وعندما عرض القرآن نماذج الانسان المختلفة من ناحية العقيدة في مطلع سورة البقرة ، ذكر المؤمنين في أربع آيات ومواجهيهم الكفار في آيتين ، ثم فضح الفئة التي فقدت انسانيتها لانه لا قضية لها أياً كانت تفاهة هذه القضية في ثلاث عشرة آية ، كشفت تناقض هذا النموذج من الناس مع نفسه ومجتمعه ، بحيث استحق اسم « المنافقين » وقد أفرد القرآن كل طائفة من الطوائف الثلاث أو النماذج الانسانية في العقيدة بسورة سماها باسمها ، فهناك سورة « المؤمنون » وسورة « المنافقون » وسورة « الكافرون » .

الفصل الأول

المؤمـــن

قال ابن منظور : آمن بالشيء صدق وآمن كذب من أخبره وحد الزجاج الايمان فقال: الايمان اظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتي به النبي ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم ، غير مرتاب ولا شاك ، وهو الذي يرى ان أداء الفرائض واجب عليه ، لا يدخله في ذلك ريب. وفي التنزيل العزيز :

« وما أنت بمؤمن لنا » أي بمصدق ... والايمان :التصديق قال تعالى: «قالت الأعراب آمنـا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » الآية [1] .

ونموذج المؤمن في القرآن نموذج واضح الملامح ،دقيق السمات ، مميز الصفات، يمثل موقفاً منسجماً من نفسه ، وربه ومجتمعه .

---

(١) في الفرق بين الايمان والاسلام خـلاف بين علماء اصول الدين ليس هذا موضـع بيانه .

علاقة المؤمن بربه :

ان الدعامة الأولى من دعائم الايمان بالله ،الايمان بالغيب :

« الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب.... والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » [١]

ذلك ان الله سبحانه كذات غير مرئي ، فإذا آمن الإنسان بامكان وجود عالم غير مرئي ، وكان من مقتضيات الانسجام مع نفسه الايمان بالله سبحانه ؛ بوصفه قوة غير مرئية مؤثرة في الكون ومدبرة له .

ثم ان الايمان بالله يستتبع تفصيلات تعمق هذا المبدأ وتوضحه،وتنفي الشرك في العقيدة بالله :

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر » [٢] .

« فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » [٣] .

ان المؤمن بالله موقن انه سبحانه متفرد بالألوهية بل ان ايمانه لا يصح إلا بيقين هذا التفرد ، على أن طريق الايمان بالله يشمل كما قلنا الايمان بالغيب ، ونعني الغيب في المقدورات ، والغيب في الكائنات ، كالملائكة والجن :

« آمن الرسول بما انزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله

---

(١) البقرة ١ ـ ٤ راجع تفسير الطبري ٨١/١

(٢) سورة الفرقان : ٦٨

(٣) سورة الزمر : ٢

وملائكته ... » [1] .

وما دام المؤمن – النموذج موقناً بلا نهائية قدرة الله ، فان ايجاد ملائكة وجن لا يخرج عن حدود هذه القدرة .

ثم ان المؤمن يكمن في أعماقه أحساس اكيد بلا نهائية العدالة الكونية الالهية ، لذا فهو مؤمن بصدق وواقعية ما خاطب الله به الانسان من ان هناك بعثاً وحساباً ، وثواباً وعقاباً ، كما هو مقتضى العدالة . يقول : تعالى: «وبالآخرة هم يوقنون » [2] .

« انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم » [3] .

وقال : « من يحيى العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » [4] .

ان الانسان لا يستطيع في أكثر الأحيان ان يكشف هذه المنظومة الكونية التي تكمن بذور الايمان بها في أعماقه ، ولئن اكتشفها فانه لا يستطيع ان يحيط بتفاصيلها ، لذا كان من فضل الله ورحمته ان بعث رسلا مبشرين ومنذرين يصلون الانسان بالله ويعملون على اقامة علاقات منسجمة بين الانسان ونفسه ، والانسان ومجتمعه ، والانسان وربه .

والانسان أياً كانت عبقريته الذهنية ، ومقدرته على التسامي ، تحط به

---

(١) البقرة : ٢٨٥ راجع تفسير الخازن ١/١٩٤

(٢) البقرة : ٣

(٣) يس : ١٢

(٤) يس : ٧٨ - ٧٩ . راجع تفسيري ابن كثير والبغوي ٧/١١٦ .

مهاوى الضلال والضعف والانتكاس ، ومن هنا كانت أهمية الرسالة والرسول للناس جميعاً ، متميزهم وعاديهم ، غنيّهم وفقيرهم ، ومن أجل هذا كان الإيمان بالرسول يأتي بعد الإيمان بالله سبحانه : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا »[1] .

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »[2] .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله »[3] .

وضرورة الايمان بالرسول نفسه تنبع من ضرورة الثقة بالوحي الذي ينقله عن ربه ، فما لم تكن هناك ثقة بالرسول ، فلن تكون ثقة بما يوحى اليه .

علاقة المؤمن بمجتمعه :

أول صلة للمؤمن بمجتمعه المؤمن هي صلة المبدأ المشترك :

« انما المؤمنون إخوة »[4] .

« محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم »[5] .

وفي تفصيل مضمون آيات الأخوة ، يقول رسول الله ﷺ « مثل المؤمنين في

---

(١) الحجرات : ١٥

(٢) الحشر : ٧

(٣) الحديد : ٢٨

(٤) الحجرات : ١٠

(٥) الفتح : ٢٩

توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » والمضمون التطبيقي لهذا ما قاله رسول الله « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » .

وإذا كان الايمان بمبدأ مشترك هو الضمانة الكبرى لتعاضد ابناء المجتمع الواحد وتعاونهم ، فان ركنين من أركان الإسلام الخمسة ، وهما ركنان اجتماعيان يقيمان أساساً متيناً لمجتمع متضامن متراص ، هذان الركنان هما الصلاة والزكاة . أما الصلاة فيقول الله سبحانه في تكييف وظيفتها الاجتماعية :

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[١] .

ويقول رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن فعل المنكر فلا صلاة له » والمنكر عبارة عن الجرائم الإجتماعية التي تتنافى وايمان المجتمع من ناحية ، كما تتنافى وانسجام اجزائه وتضامنها ، وفي مجال علة امتناع المصلي عن فعل المنكر يقول الله سبحانه « ولذكر الله أكبر »[٢] .

ونفهم من التنويه بذكر الله بعد القول بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بأن أثر الصلاة الاجتماعي أثر نفسي ، يبدأ بالتأمل والتطهير الفردي ، ويمتد ليشمل النزعة الجماعية التي تشيعها الصلاة في صلوات الجماعة والاجتماع لها في المساجد في الأيام العادية وفي المناسبات ، مما يعمق المفهوم الاجتماعي لهذه الشعيرة الهامة من شعائر الإسلام .

ونصل إلى الوظيفة الإجتماعية للزكاة في حياة المؤمن ، وتتميز الزكاة بانها ذات

---

(١) العنكبوت : ٤٥

(٢) العنكبوت : ٤٥

وظيفة اجتماعية مباشرة ، إذ هي عمل اقتصادي اجتماعي واضح ، تقتضي المؤمن ان يتنازل سنوياً عن نسبة مئوية معينة من ثروته لصالح الجزء الفقير من مجتمعه وليس هذا التنازل أمراً اختيارياً متروكاً لسخاء نفس الفرد بل فرض ديـني لا يكمل ايمان المؤمن بغيره .

« والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » [1] .

« ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » [1] .

ويكمن الفرق الأعمق لترابط الصلاة والزكاة في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

ذلك ان الصلاة تطهير على المستوى الفردي ، والزكاة تحقيق لهذا التطهير في المجال الاجتماعي .

ويبقى بعد هذا الجزء السلبي من العمل الاجتماعي للايمان في نفس المؤمن :

« ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون » [3] .

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون » [4]

---

(١) المعارج : ٢٥ راجع تفسير ابن كثير ٤/٤٢٢ .

(٢) التوبة : ٧١

(٣) الفرقان : ٦٨

(٤) الشورى : ٣٧ راجع تفسيري ابن كثير والبغوي ٧/٣٧٥

« والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً »[1] .

« الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »[2] .

ومجتمع المؤمن ليس مجتمعاً مؤمناً دائماً ، لكن مبدأ المؤمن لا يتخلف أياً كانت ماهية المجتمع الذي يعيش فيه ، ويتعاون معه وهو يتعامل مع المجتمعات الأخرى في نطاق مبادىء :

الكرامة الانسانية « ولقد كرمنا بني آدم »[3] .

ووحدة الدين السماوي « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والـــذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى،ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[4] .

وحرية الفكر والعقيدة : « لكم دينكم ولي دين » «لا اكـــراه في الدين »[5] .

ولئن لم ينسجم سلوك الآخرين أو عقيدتهم مع مبدأ وحدة الدين وحرية الفكر فان المؤمـــن النموذج لا ينسى مبدأه أبداً ويصر دائماً على تذكير

---

(١) الفرقان : ٧٢

(٢) آل عمران : ١٣٤

(٣) الاسراء : ٧٠

(٤) الشورى : ١٢ راجع تفسيري ابن كثير والبغوي ٧/٣٠٦

(٥) الكافرون : ٦ ، البقرة : ٢٥٦ راجع تفسير ابن كثير ٤/٢٣٨

الآخرين به .

والسلوك العام والدائم للمؤمن هو الايثار « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1] .

انسجامه مع نفسه :

لا يعاني المؤمن من عقد في نفسه ولا في سلوكه تجاه الآخرين ذلك لأن إيمانه بقضية نذر لها حياته - «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة »[2] جعل ما عدا ذلك يتضاءل في نظره حتى ليكاد يختفي من حياته .

فهو قد تخلى نهائياً عن أوهام العظمة والسيطرة ، لأنه مـؤمن أن الله سبحانه هو العظيم والمسيطر « الله لا إله إلا هو الحي القيوم »[3] ، «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »[4] .

وهو يحاول بكل طاقته أن يجتنب الانحراف في السلوك : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[5]

وان زل فان الوسواس لايسيطر عليه ، ذلك انه مؤمن بأن الله سبحانه غفور رحيم « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً[6] .

---

(١) الحشر : ٩

(٢) التوبة : ١١١ راجع تفسير الخازن ٢/٢٦٥

(٣) البقرة : ٢٥٥ راجع تفسير الطبري ٣/٤

(٤) الجاثية : ٢٣

(٥) العنكبوت : ٦٩

(٦) طه : ٨٢ راجع تفسير ابن كثير ٣/١٦١ .

والتوتر النفسي الذي تحدثه مخاوف الإنحراف في أعماق المؤمـــن تبقي على جذوة المبدأ متأججة في أعماقه ، مرشدة له في دروب الحياة .

والميزان الدقيق لحرية المؤمن في حركته أمام الناس والأشياء ، والأحداث ، ذلك « الاقتناع » ـ وأصر على الاقتناع وليس الإيمان ـ بالقدر ، والاقتناع في الوقت نفسه بضرورة الحركة في اتجاه ما هو خير وتقدم لنفسه والعالم .

الفصل الثاني

الكافر

في لسان العرب : الكفر نقيض الايمان ... والكفر كفر نعمة ،وهو نقيض الشكر ، والكفر جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ، وقوله تعالى « انا بكل كافرون » أي جاحدون . . ورجل كافر جاحد لأنعم الله ، مشتق من الستر ، وقيل لأنه مغطى على قلبه .. ا هـ [١] .

ونموذج الكافر في القرآن ، نموذج كثير الورود ، كثير التكرار ، بحيث أصبح واضح القسمات ، بين السمات ، ويبدو موقفه كنموذج من احتكاكه بالناس والأشياء .

فهو في مجال العقيدة يأبى أن يفكر أو يتدبر ، وقد يكون رفض التفكير موقفاً ، لكنه ليس موقفاً انسانياً يتفق وكرامة الإنسان ومسؤوليته :

---

(١) يقسم اللغويون وعلماء أصول الدين الكفر إلى عدة أقسام لا مجال لاثباتها هنا : لسان العرب : ٨/٤٥٩ .

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »[1]

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين »[2] .

« ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »[3] .

وهو لا يكتفي بأن يتخذ موقفاً سلبياً مطلقاً من دعوة قد تغير من وضعه الذهني أو النفسي أو الاجتماعي ، بل يحاول أن لا يدع الآخرين يفكرون أيضاً:
« الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون »[4]

ثم لا يكتفي بالضغط الفكري على أولئك الذين يريد التأثير عليهم لمنعهم من الاستماع إلى ما يقال لهم ، بل ينفق ماله أيضاً ، مع انه يمكن القول هنا بأنه ينفق القليل ليحافظ على الكثير ، إلا أن الواقع يثبت ان الوقوف ضد مبدأ من المبادىء يتحول بسرعة إلى لون من التعنت والغرور ، بحيث يندفع صاحبه شيئاً فشيئاً متجاهلاً كل اعتبارات التعقل والهدوء ، وضبط النفس ، حتى ليتجاهل في ظرف من الظروف مصالحه هو ليثبت انه على حق ، وان غيره على باطل :

« ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله »[5] .

ولكن : ماذا يقدم المنكر لنفسه وللآخرين الذين يتبعونه من معطيات تواجه

---

(١) البقرة : ٧
(٢) يس : ٤٦
(٣) البقرة : ٦
(٤) الاعراف : ٤٥ راجع تفسير الخازن ٢/٨٩
(٥) الانفال : ٣٦ » » » » » ٢/١٨٢

دعوة الحق التي يجحد بها ، ويصارعها ، إنه لا يقدم لهم شيئاً له قيمته ، ذلك انه يحاول أن ينصب في مقابلة الحق ودعوته صنماً فكرياً أو واقعياً « إن يتبعون إلا الظن ، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً » [1] .

« ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا » [2] .

وما هو الكافر في حقيقته اذن ؟ انه عبد المادة ، لا في سلوكه ، فهذا أمر آخر ، بل في عبوديته الفكرية لها ، فهو يرفض الله سبحانه ، لأنه ليس مادياً ، ثم هو يرفض الدعامة الرئيسية للعدل الكوني ، لأنها لا تقع تحت بصره ، أو هذا على الأقل هو المبرر الظاهري لرفضه هذا :

« وهم بالآخرة كافرون » [3] .

« وقالوا ان هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » [4]

وينعكس غروره المادي هذا على سلوكه الاجتماعي ، فتبدو مواجهته الفكرية أمراً هيناً إذا قيست بآثار سلوكه في مجتمعه أو المجتمع الذي يعيش فيه ، فهو تقليدي يكره تقدم المجتمع واصلاحه :

« ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » [5] .

---

(١) النجم : ٢٨
(٢) الفرقان : ٥٥
(٣) الاعراف : ٤٥
(٤) المؤمنين : ٣٧
(٥) هود : ١٠٩

« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » [1] .

وما ذلك لاعزازه العميق لقيم آبائه لكنها حجة من لا حجة له أمام رياح التغيير التي تهب على المجتمع في محاولة لاصلاحه وهو رجل غير موثوق به في تعامله مع الآخرين ذلك لأنه مادي والمادي لا يؤمن بشيء :

« الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون » [2] .

وهو حاقد على الآخرين ، الذين يدعونه إلى الحق لأنهم يهددون نزعته المادية، والذين يشاركونه رأيه لأنهم ينافسونه في مجال المادة وصراعها :

« قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » [3] .

والكافر النموذج يتلبس في صراعه مع الحق مسوح رجال المبادىء الذين يريدون حماية المجتمع في الفكر والسلوك من عوامل العبث والهدم ، لكن سلوكه هو في المجال الاجتماعي لا يجعل لكلامه قيمة ، ولا لموقفه معنى ، إلا المعنى الحقيقي المادي الذي لا يتصل بالمبادىء المدعاة لا من قريب ولا من بعيد :

« وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان ، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » [4] .

ان ممارستهم الجرائم الاجتماعية تظهرهم على حقيقتهم أمام أولئك الذين يتبعونهم

---

(١) البقرة : ١٧٠
(٢) الأنفال . ٥٦
(٣) آل عمران : ١١٨ راجع تفسير ابن كثير ٣٩٨/١
(٤) المائدة : ٦١٢ راجع تفسير الخازن ٤٥٣/١ .

رغباً أو رهباً ، فيضطرون حينئذ إلى الكشف عن مقاصدهم المــادية المستترة فيبدو عندها ان المبادىء نوع من اللهــو في نظرهم أوهي وسيلة للاستمرار في وضعهم الاجتماعي الممتاز ، ولم تكن أبداً غاية في نظرهم :

« اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا » [1] .

هذه المواقف السلبية التي بدأت مادية للدفاع المحض عــن المصلحة الخاصة وانتهت غروراً محضاً أيضاً لا مبرر له تتجاهل أولاً وأخيراً العقل والمنطق وسلام النفس ، فتطرح انسانيتها جانباً لينتصر الجانب الحيواني في الكائن :

« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » [2] .

---

(١) الانعام : ٧٠
(٢) الانفال ٥٥ راجع تفسير الخازن ١٩٠،١

الفصل الثالث

المنافق

من نافق نفاقاً ، وللفظ النفاق دلالة عامة مهما قلب على مختلف وجوهه تشمل معنى « الخفاء » أو « الكتمان » أو «النفاد» أو « الاستنفاد » .

يقول الفيروزابادي : النفقاء والنفقة كهمزة : إحدى حجرتي اليربوع . يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق [1] .

ويقول ابن منظور : سمي المنافق منافقاً للنفق وهو السرب في الأرض ، وقيل أنه سمي منافقاً لأنه نافق كاليربوع ، وهو دخوله نافقاءه ...

وله حجر آخر يقال له القاصعاء ، فإذا طلب قصع فخرج من القاصعاء فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء..[2] فيقال : هكذا يفعل المنافق يدخل في الإسلام ، ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه .

---

(١) القاموس المحيط : ٣ - ٢٨٦ .

(٢) لسان العرب : ١٢ - ٢٣٧ .

قال أبو زيد الأنصاري :... والنفاق الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر ، مشتق من نافقاء اليربوع ، اسلامية [1] .

وإشارة أبي زيد هامـة في التأريخ لانتقال دلالة « منافق » من اليربوع إلى الصنف المعروف من الناس اليوم .

وهي اذن شأنها في ذلك شأن ألفاظ أخرى كثيرة نقلها الإسلام من دلالتها اللغوية إلى دلالة شرعية استحدثها . والإشتراك بـين الأصل اللغوي والمعنى الشرعي يتمثل في المصانعة والمداهنة ، واظهار خلاف ما يبطن الكائن ، وهو شأن اليربوع في الأصل .

وقد اقتضت الدعوة الجديدة إلى الله هذا التصنيف النموذجي للناس تبعـاً لموقفهم من المبدأ الذي جاءت به ، ودفعت إليه وحثت عليه .

فالذي اتخذ من الدعوة موقفاً إيجابياً سمي مؤمناً .

والذي اتخذ منها موقفاً سلبياً سمي كافراً .

والذي لم يتخذ موقفاً على الاطلاق سمي منافقاً .

ونموذج المنافق في القرآن معروض في آيات وسور متعددة وبشكل دقيق يصلح مدخلاً لدراسة مطولة عنـد سراديب الطبيعة البشرية التي لا توجد في كل الناس ..

وأول سمات شخصية المنافق ـ النموذج ، سمة خلقية لا فكرية تتفرع عنهـا كل أسباب ومبررات نفسيته المتلونة ، هذه الصفة هي الجبن : « يحسبون كل

---

(١) لسان العرب : ١٢ ـ ٢٣٨ .

صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم »[1] .

« فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد »[2] .

وجبنه هذا يشمل كل حياته ، في فكره وسلوكه ، وتعامله مع النـــاس والأشياء ، فهو لا يؤمن بمبدأ معين ، لأن ذلك يتطلب شجاعة خاصة لا يملكها، ولأن ذلك يقتضي الالتزام بمواقف وأساسيات لا يجد في نفسه القـــدرة على الالتزام بها :

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً »[3] .

لكنه أيضاً لا يؤمن لأنه يخاف الكفار أن يؤذوه ، ويخاف المؤمنين أيضاً أن يحتقروه ، فما الحل إذن ؟إن للكافر موقفاً هو الرفض ، والمؤمن موقفاً هو الالتزام ، اما هو فيتخلص من مشاكله بعدم اتخاذ موقف : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون »[4].

والمنافق ـ النموذج إنسان كالناس ، لكن مرانه على التهرب من التبعيـــة حوّل هـــذا التهرب إلى طبع متأصل فيه ، وساعدت نزعته المادية القوية على المزيد من الانحطاط في شخصيته مع حرصه التام على اخفاء كل ذلك :

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه،

(١) المنافقون : ٤ .
(٢) الأحزاب : ١٩ .
(٣) البقرة : ١٠ راجع تفسير الطبري ١ - ٩٤ .
(٤) البقرة : ١٤ - ١٥ .

وهو الدّ الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد [١] .

وإذا كان الكافر يعتقد أولاً انه يعمل لصالح مجتمعه ، وأن محاولة التغيير هي محاولة هدّامة ولذلك فهو يقف ضدها ، فإن المنافق لا تخالجه أوهام حول ذلك كله، إنه موقن انه على خطأ، لكنه يمضي رغم ذلك في الفساد والافساد:

« ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »[٢] .

إنه يقول للآخرين : كيف أكون فاسداً مفسداً وأنا المؤمن بالله واليوم الآخر ، والمؤمن ليس مفسداً لأنه ليس مادياً ، في حين انه حقيقة ليس مؤمناً :

« ومن النّاس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين » [٣] .

وخطورة اتجاه المنافق هذا تكمن في تغلغله الخفيّ في المجتمع بغير حواجز، لأن المؤمنين يخصونه ثقتهم وودهم بحسبانه مؤمناً حقاً بينما يبغيهم هو الغوائل سراً ، ويداهنهم جهراً التماساً لنفع دنيوي يحصله عن طريقهم ، فهو مثلا لا يخرج للقتال مع المؤمنين لأسباب معروفة لكن إذا حصل المؤمنون المقاتلون على مغنم حاول أن ينال نصيباً منه : « الذين يتربصون بكم ، فإذا كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » [٤] .

---

(١) البقرة : ٢٠٥ .

(٢) البقرة : ١٢ .

(٣) البقرة : ٨ .

(٤) النساء : ١٤١ راجع تفسير ابن كثير ١ - ٥٦٧ .

فإذا نوقش في أمر ، وشعر أنه سيحاط به ، سارع إلى الأقسام يستدر بها العطف والثقة : « اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » (١) .

وإذا كان الجبن يفرز الكذب ، فإنه يفرز أيضاً الحقد والحسد : «إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون » (٢) .

وهو في سعيه الجاهد لتقويض المجتمع المؤمن وهدمه، يستعين بكل الوسائل، وأولها محالفة أعداء المجتمع سراً ، والعمل المشترك معهم « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً » (٣) .

وسلاح المنافق الرئيسي في صراعه المجتمع المؤمن هو الشائعات يخلقها ، أو يبالغ فيها : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لها» (٤)

« لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » (٥) .

ذلك لأنه لا يجرؤ على مواجهة المؤمنين صراحة ، وستاره الرئيسي في جملته مظهر حسن ، ولسان خلب :

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم » (٦)

---

(١) المنافقون ـ ٢ .
(٢) التوبة ـ ٥٠ راجع تفسير الخازن ٢ ـ ٣٣٢ .
(٣) النساء ـ ١٣٩ .
(٤) التوبة ـ ٤٧ .
(٥) المنافقون ـ ٨ .
(٦) المنافقون ـ ٤ .

سيرة منافق :

اسمه : عبدالله بن أبيّ بن سلول ، من الخزرج ، القبيلة العربية في المدينة التي كانت تعيش مع الأوس . كان سكان المدينة يسيرون نحـــو حياة زراعية تجارية مستقرة ، فرأوا أن يقيموا عليهم أمـيراً يضبط شؤونهم ، ويؤمن بعضهم غائلة بعض ، ففكروا بإقامة عبدالله أميراً ... وحال دون ذلك الإسلام ، وهجرة النبي إلى المدينة بعد إيمان كثير من أبنائها بدعوته ...

أكل الحقد فؤاد ابن أبيّ وصمم منذ اللحظة الأولى على أن يهدم المجتمع الجديد [1] .

لكن الرفاهية الـتي عاش في ظلالها ، وجبنه المتأصل ، وكثرة المؤمنين ، حالت دون مصارحته الرسول ﷺ بالعداوة ، فتظاهر بالايمان ، وابطن النفاق وجاءت مواقفه المنافقة تترى ...

فاستطاع أولاً أن يكوّن جماعـــة صغيرة من المنافقين في مدينة الرسول تناوىء الدعوة سراً ، وبدأ يثبط الناس عن الخروج مع الرسول في بدر .

وقام بحركة بارعة فأرجع ثلث النـــاس عن القتال في أحد بحجة خلاف في الرأي مع المسلمين ...

وفي إحدى الغزوات ، تشاجر غلامان لأنصاريّ ومهاجريّ فحوّل ابن أبيّ الأمر من نزاع بسيط إلى عصبية بين الأنصار والمهاجرين ، بـــين العدنانيين والقحطانيين ، وجمع حوله رجالاً مهدداً بأنـــه عند العودة إلى المدينة ليخرجن الأعز منهـا الأذل ، وقال للأنصار : اما والله لو أمسكتم ما بأيديكم لتحولوا إلى

---

(١) ابن هشام ٢/١٤٨ ، عيون الأثر ١/٢٢٢ .

غير دياركم ، ونزحوا لغـــير بلادكم ، يا قوم لو أردتم الخير لأنفسكم لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفضوا ، ولا تلاقوهم بوجه حتى يرحلوا.

وأخبر أنصاري مسلم رسول الله بما قال ابن أبيّ ... فعرض ابنه أن يقتله ، لكن الرسول أبى ، قائلا : ماذا لو تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ وكان ابن أبيّ قد افتضح أمره ، وضعف شره ، وسقط سلاحه الرئيسي من يده لأن سلاح المنافق الخفاء .

ومات بعد أن ضاع منه الملك وضاعت منه إنسانيته .

ان المنافق ـ النموذج هو كما وصفه رسول الله ﷺ بدقة متناهية :

« مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة ، لا تدري أيها تتبع » .

إنه إنسان لا موقف له .

الباب الرابع

نماذج العلاقات الانسانية

الفصل الأول : الأبوة .

للفصل الثاني : الأمومة .

الفصل الثالث : البنوة .

الفصل الرابع : الأخوة .

الفصل الخامس : الزوجية .

الباب الرابع

نماذج العلاقات الانسانية

يصر المفكرون الاجتماعيون منذ قرون متطاولة على القول بأن الإنسان كائن اجتماعي ، ويعنون بذلك أنه لا يستطيع المحافظة على بقائه واستثمار هذا البقاء إلا في مجتمع ، متعدد النشاطات ، يموج بمختلف نماذج الناس والأشياء والأعمال .

وفي القرآن الكريم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والهدف الرئيسي لخلق الإنسان إذن أن يعيش مع أخيه الإنسان ، وأن ينافسه في مجال الخير والعطاء للناس جميعاً .

وانطلاقاً من النظرية القرآنية بدت النزعة الإجتماعية في كتابات المفكرين المسلمين مصبوغة بصبغات مختلفة ، دينية وفلسفية وأخلاقيـة لكن السمة الاجتماعية فيها بالغة الوضوح ، ويصدق ذلك على كتابات الفارابي وابن سينا ، وابن مسكويه ، وابن خلدون . وربما كانت صياغة ابن سينا للنظرية الإجتماعية الإنسانية هي أوضح ما ورد في الفكر الاسلامي في هذا الشأن :

« لمّا لم يكن الإنسان بحيث يستقل وحده بأمر نفسه إلا بمعاونة آخر من بني جنسه ، وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما ، يفرغ كل واحد منهما لصاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد كثير وكان مما يتعسر ان أمكن ، وجب أن تكون بين الناس معاونة وعدل ... يتولاها شارع من عند الله.. »[1]

وإذا كان الفلاسفة المسلمون قد حاولوا أن يقيموا نسقاً فلسفياً يفسر أسباب قيام المجتمع وبقائه ، فإن اللغويين ورجال الأدب قد أدلوا بدلوهم في هـــذا المضمار ، وذهبوا مذاهب شتى في تحليل أصل كلمة « إنسان » وإنها من الانس ، ضد الوحشة وإن المكان الانيس هو العامر بأكثر من انسان ... »[2]

والحق إنه ليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق والفطرة الإجتماعية غير الانسان ، واسم الإنسان وحده في اللغه العربية كما قدمنا يغني عن كثير من الأدلة ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيـد أساساً للألفة الاجتماعية .

وخلاصة ما يمكن أن يقال تدليلا على المعنى الاجتماعي (إنسان) في لغـة الضاد أن المكان الأنيس هو الذي يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذي يألف الناس في مساكنهم، وغير ذلك من الأمكنة والخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش[3] .

ونصل هنا إلى أمر لا بد من إيضاحه قبل البحث في نماذج العلاقات الانسانية في القرآن بالتفصيل . لقـــد ركز المفكرون الاجتماعيون في كل ما كتبوه عن الانسان كحيوان إجتماعي ، على الضرورة المصلحيـــة للاجتماع الانساني ،

---

(١) الاشارات والتنبيهات ٣/١٢٥ .
(٢) لسان العرب مادة (أنس) .
(٣) الإنسان في القرآن ـ ١٦٥ .

وضربوا لذلك الأمثلة من مختلف وجوه النشاط البشري ولعل أقدم هذه الأمثلة في فكرنا ما ذكره الطوسي في شرحه على تنبيهات ابن سينا ، عندما أراد أن يوضح فقرات الشيخ الرئيس في الشؤون الاجتماعية فقال : ان الانسان المنفرد الوحيد محتاج إلى سلاح يقيه غائلة الوحوش ، وإلى لباس يقيه الحر والقر ، وإلى مسكن يقيه هذا وذاك ، وكل هذه أمور لا يستطيع أن ينفرد باختراعها ، فالسلاح الماضي يشترك في إيجادة العمال الذين يستخرجون الحديد ، والحداد الذي يصنعه ، والجلاء الذي يحوله إلى سيف قاطع ، وهكذا ... وإذا كان هذا شأن السيف ، فلكل وجوه النشاط في الحياة شؤون لعل شأن السيف أقلها تعقيداً ...

وتوالت بعد الطوسي الأمثلة المضروبة لابراز ضرورة المجتمع .

وعندما يتابع هؤلاء المفكرون استنتاجاتهم يصلون إلى أن في الانسان حباً جماً للحصول على كل شيء ، فإذا كان يعيش في مجتمع فإن ذلك متعذر ، لأن كل واحد يشتهي ما يشتهيه الآخر ، فيدور صراع رهيب يؤدي إلى فناء الناس ، وزوال المجتمع ، ومن هنا برزت ضرورة « الشارع » أو « القانون » الذي يلزم الناس بالتنازل عن بعض مشتهياتهم ، بل بعض حقوقهم ، كضريبة لازمة لبقاء المجتمع وازدهاره ، وهذه النظرة إلى أسباب قيام المجتمع الانساني ، وعوامل استمراره ، تتضمن أمرين اثنين :

١ ـ اتهام الانسان بأنه انفرادي في أعماقه إلى درجة أنه لا يهمه أن يزول المجتمع ان حصل على ما يريد .

٢ ـ اتهام الانسان بأنه لا يهمه من بقاء المجتمع إلا تحصيل ضروراته الحياتية التي يتعسر عليه أن يحصل عليها دون « معاوضة ومعارضة » على حد تعبير ابن سينا . إلا أن الفلسفة القرآنية تقول غير هذا تماماً . انها تؤكد دوماً أن الانسان كائن اجتماعي فطرة واعماقا « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

إن هدف الخلق إذن هو تكوين مجتمع يتم فيه التعارف والتحاب والتآلف بين الناس ، ولن يكون ذلك إلا إذا كان الانسان مهيئاً أصلا لهذا الغرض ، أي لا بد أن يكون الخالق قد وضع في الانسان استعدادات تؤهله للعمل عضواً في مجتمع إنساني متقدم بقيمه الانسانية وأخلاقياته التي يأتي التعارف والتواد الانساني في قمتها .

ولهذا كان حرص القرآن على إبراز كرامة الانسان وكرامته على الله سبحانه ، فأقام القرآن الاجتماع حول مبدأ واحد أساساً للتحاب « إنما المؤمنون أخوة » وأقام أحياناً أخرى إنسانية الانسان أساساً « ولقد كرمنا بني آدم » وأقام في كثير من الأحيان مجرد حب الانسان للسلام والطمأنينة أساساً للود والصفاء في المعاملة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

وليس معنى ذلك أن القرآن لا يقرر وجود مصلحة في علاقات الناس بعضهم مع بعض ، إن ذلك لم يكن أبداً من أهداف القرآن ، لكنه حتى في حال وجود المصلحة يشدد على الإحتفاظ بإنسانية الإنسان ، بحيث لا تتعدى المصلحة طورها لشذوذ إنسان أو شروده فتتحول إلى غاية ، متجاوزة وظيفتها كوسيلة عادية طارئة لا تؤثر في شيء على الأهداف الإجتماعية الكبرى التي أراد الله سبحانه للمجتمع أن يقوم على أساس منها ، ومن هنا كان حظر القرآن للربا والاحتكار والغش ... إلخ .

ولم يتجاوز القرآن بذلك الطبيعة الإنسانية ، بل على العكس من ذلك عمّق فهمها ، وألقى ضوءاً كاشفاً على بعض غوامضها ، فإن كلاً منا يحس من نفسه في حالاته العادية ميلاً إلى الهدوء والسلام وود الآخرين والبعد عن البغضاء والخصومات ، وعوامل القلق والاضطراب ، وليس هذا كله حالة نفسية بل الأمر كما أوضح القرآن هو أمر الطبيعة الإنسانية التي كشف الله سبحانه أن هدفها العميق البعيد هو « التعارف » .

ومن هذا المنطلق يمكن دراسة بعض النماذج التي تنضوي تحت العلاقات الإنسانية في القرآن الكريم ، كالأبوة والأمومة والبنوة والأخوة والزوجية ، ولا شك أن حب الإنسان لابنه مثلاً هو جزء من حبه لذاته ، إذ أن ابنه يمثل نوعاً من الاستمرار الجديد له ، بيد أن الأمر أعمق من ذلك ، إنه يتصل بالطبيعة الانسانية الأصيلة التي يمكن استكشاف كنوز الود والسلام والحب فيها ببعض التأمل ، وتوجه العزيمة نحو ذلك .

وليكن ما قدمناه عن نظرة القرآن إلى الانسان رائداً لنا في دراستنا النماذج السالفة الذكر في الكتاب الكريم .

الفصل الأول

الأبـــوة

عندما نتحدث عن الأبوة – النموذج في القرآن الكريم فاننـــا نقصد ذلك موقفها تجاه الأبنـاء ، ذلك الموقف الذي يشكل منظارها للحياة والأحياء من حيث أنه الموقف الأساسي الذي قد يضحي الأب من أجله بكل شيء آخر . ليسلم له ابنه أو أبناؤه ، وما ذلك بقليل في نظر الأب الذي تملأ مشاعر الأبوة عليه فكره وحياته .

والأبوة ذات أهمية خاصة في مجـــال التوجيه الحياتي إذ أنه في مجتمعات أبوية كمجتمعاتنا تحتل شخصية الرجل - الأب – وتصرفاته المقام الأعلى بالنسبة للطفل في مراحل تكونـه الذهني الأولي ، بحيث يتشرب قيم الأبوة وتقاليدها وفلسفتها في الحياة .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن القرآن الكريم نظر إلى الأبوة والأمومة نظرة خاصة ، خالصة كلها الاشعار بالحنان والحب والرعاية للصغار ، بحيث وصى الصغار بها ولم يوصها بالصغار « ووصينا الانسان بوالدية ... » نكون بذلك قد استوفينا نواحي النظر في الأبوة ـ النموذج في القرآن من الناحيتين النظرية والعملية ومما

يساعد على هذا أن القرآن لا يفرد « الأبوة » بسورة خاصة مثلاً يبين فلسفتها وقيمها ، بل نلمح نظراته في هـــذا المجال منبثة في قصص القرآن بحيث يمكن تنسيقها واظهار ترابطها وتكاملها لتكون صورة تامة شديدة الوضوح في هـــذا المضمار نظراً لارتباطها بالواقع .

والحق أن فلسفة الأبوة القرآنيـــة يمكن تركيزها من خلال عرض ثلاث مواقف للآباء تجاه أبنائهم تلم بمختلف الجوانب الانسانية لهذه المعضلة الغامضة بعض الشيء .

الموقف الأول هو موقف نوح عليه السلام من ابنه أما الموقف الثاني فموقف إبراهيم من ولده إسماعيل عليهما السلام ، ويـــأتي الموقف الثالث وهو موقف يعقوب عليه السلام من ولده يوسف ، ثم يكمن تكملة ذلك بإلقاء بعض الأضواء على قيم الأبوة وفلسفتها بموعظة لقمان لابنه ..

أما موقف نوح من إبنه فله مقدمات ، فقد أرسل الله سبحانه نوحاً إلى قومه بشيرا ونذيرا آمراً له « أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » فأطاع نوح أمر ربه ، وانصرف إلى قومه مبشراً ونذيراً مشدداً على أن عقاب الله قريب إن أعرض القوم على أن هذا الموقف وإن كان سليماً في ذاته فهو ينطوي على فوائد مادية أيضاً فإن الله ربط الايمان بالرفاهية ، وجعله مقدمة لها فقال .

« استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهار » [1]

بيد أن المدة الطويلة التي قضاها نوح في الدعوة ، وسلامة هذه الدعوة ، لم ينجذب إليه من قومه إلا نفر قليل من فقرائهم وعبيدهم ، وتعلل عليه القوم

(١) نوح - ١١ .

بالعلل ، قالوا انه آوى اليه الشذاذ والحقراء ، وأنه أملّ وأطال ، وانه مخطىء في ترك الآلهة إلى عبادة الاله الواحد ، وكان ذلك كله من جانب واحـــد ، إذ عندما حاول ان يبين لهم خطأهم في حججهم «جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ... » [1] .

والقرآن لا يحدثنا في هذا الجزء من قصة نوح عن موقف ابنه من الدعـوة الجديدة لكننا نفهم ضمناً ان هذا الشاب لم يظهر لوالده معارضته لرأيــه ، ولا ناصب الدعوة العداء رغم عدم ايمانه بها كما بدأ فيما بعد ، ويشعرنا ذلك انه كان كثير من شبابنا اليوم ؛ يؤثر السهولة في كل شيء ، وليس له موقف محددمن الناس والاشياء ، وانما هو من اتباع فلسفة الجماعة دونما تفكير في الرخاء والشدة.

وانتقل نوح عليه السلام إلى الجانب الآخر من دعوته فهدد قومه بعقوبة الله ، بيد ان ذلك لم يحدث تغييراً كبيراً في نفوسهم ، وهكذا أقبل بأمر من الله على صنع « الفلك » لينجو به مع المؤمنين به وهم قلة عندما تقع الواقعة .

ثم كان الطوفان الذي لم يبق إلا نوحاً والمؤمنين بدعوته .

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات الواح ودسر » [2]

وكان ابن نوح عندما اشتد النزاع بين والده وقومه قد طولب باتخاذ موقف على ما يبدو فآثر السلامة وترك منزل والده كما يعبر القرآن « وكان في معزل » على ان هذا لم ينجه كما توقع ، اذ ان الطوفان شمل كل من لم يركب في السفينة ، وتنبه

---

(١) نوح . ٧

(٢) القمر : ١١

نوح إلى غياب ولده وانخراطه في غمار الجماعة فناداه « يا بـني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » (١)

وكانت الأبوة الحنون هي الدافع الأول لهذا النداء الرحيم، بيد ان هذا الابن الضعيف الذي ما تعود ان يكون قوياً أبداً آثر السلامة للمرة الثانية فأبى انتظاراً لترحيب الجماعة الكافرة به، وهي التي رأته يتخلى عن والده ويتبعها، واشتدت بنوح اللوعة، فكان نداؤه الثاني لولده منذراً محذراً انه سيغرق ان لم ينضم إلى رواد الفلك، ورد عليه ابنه هذه المرة بحجته المضحكة التي توشك ان تكون طرفة « سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » (٢) وأجابه الـوالد الشفوق « لاعاصم اليوم من أمر الله » (٣) حتى هذه اللحظة كان ابن نوح ما يزال يردد أصداء آراء الجماعة وأفكارها دون تدبر أو تفكير، وما أكثر الذين نراهم في الحياة من هذا الطراز.

والأمر ينتهي عند هذا بين نوح وابنه، بيد أن للأبوة موقفاً أشد هولاً حيث أقبل نوح وهو سيد المؤمنين بالله في تلك الحقبة على ربه سبحانه راجيــاً انجاء ابنه:

« ان ابني من أهلي، وان وعدك الحق .. » وكان لا بد من هــذا الحنان الأبوي الذي انسى نوحاً للحظات اساس الدعوة الطويلة التي قضى فيها عمره، وناصب من أجلها قومه والعالم العداء، هذا الأساس هو أن العلائق في المجتمع المؤمن هي علائق العقيدة المحض دونما أحساب ولا انساب، وعلى هذا فالمؤمن أخ وابن لك، والكافر عدو لك خارج عن أهلك، وان ولدته امرأتك « يا نوح

---

(١) هود : ٤٢ راجع تفسير الخازن ٢ / ٣٢٧
(٢) هود : ٤٣
(٣) هود : ٤٣

انه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح »[1] .

وانتهى الأمر عند هذا « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » وكانت يقظة نوح عند تذكير الله سبحانه « رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً ... »[2] انهم هؤلاء الذين دخلوا البيت مؤمنين لهم الغفران ، أو ينبغي أن يكون لهم في نظر نوح بعد افاقته من مأساة غرق ابنه ، لكنها لوعة قاستها الأبوة الرحيمة أمام ضعف البنوة وتهافتها وايثارها للجانب السهل من الحياة .

والعنصر الأول من عناصر الأبوة النموذج كما يبدو في قصة نوح هو وفاء الأبوة للبنوة في جميع المواقف حتى تلك التي تعق فيها وتتباعد ، والعنصر الثاني هو : الإيضاح للمبادىء لا للعواطف ، وان تكن العواطف الإنسانية للحظات هي صاحبة الصولة والغلبة ، بيد ان الأمر سرعان ما يستوى كما أراد الله سبحانه مع أهل الحق ، فتكون المبادىء هي كل شيء عند عظماء الرجال .

ونحن اذ نتحدث عن الأبوة — النموذج فاننا نلاحظ أن الأبوة عند عظماء الرجال تكون فيها الكلمة الأخيرة للمبادىء .

والمحنة التي واجهتها أبوة ابراهيم عليه السلام مثل آخر للصراع الطويل الذي يخوضه الإيمان مع النفس لترويضها على الاستسلام التام لأمر الله ، فابراهيم الذي داهمته الشيخوخة دون أن يرزق بذرية ، تأتيه الذرية في شخص ابنه ، فترد اليه شبابه وحيويته ، ونضارة أيامه ، فاذا استوى عود الطفل وقارب الفتوة ، أو

---

(١) هود : ٤٦

(٢) نوح : ٢٨

كما يعبر القرآن « بلغ معه السعي » تلقى أمراً إلهيا بأن يضحي لله بابنه ، وواضح أن المقصود بالأمر مجرد « الخضوع » أو « تطويع النفس » لاقسى ما يمكن أن يقع ويقدم الأب ابنه طائعاً مختاراً فتتدخـــل ارادة الله لتنقذ الابن والأب ، مؤكدة المثل الأعلى للأبوة ـ النموذج في القرآن التي تعني التفاني من أجل مصلحة الابن شرط ان يبقى الله سبحانه هو المهيمن في نفس الأب والإبن .

وإذا كان نوح عليه السلام يمثل الأبوة الطيبة في صراعها مع عواطفها الشخصية ، وانتصار المبدأ في نفسه أخيراً .

فإن يعقوب عليه السلام كان يواجه مشكلة اقسى ، اختبرت فيها ابوتـــه النموذج اختباراً قاسياً في مجال علاقاته مع أبنائه . فقد قـــدر أبناء يعقوب الأحد عشر ان صغيرهم أقرب إلى قلب والدهم منهم جميعاً ، وقرر أكثرهم بالنتيجة التخلص من يوسف بالقتل أو الإبعاد ليخلو لهم وجه أبيهم بزعمهم . وما كان يعقوب أكثر عناية بيوسف الا لصغره ، ولكن الحسد إذا داخل نفساً أفسدها وأفقدها التقدير الهادىء الأمور ، وهكذا كان ... فقد القوا أخاهم في بئر في طريق القوافل المتجهة إلى مصر « وجاءوا أباهم عشاء يبكون »[1] زاعمين أن الذئب أكل يوسف ، ودليلهم أنهم « جاءوا على قميصه بدم كذب »[2] ويعقوب بحاسة الأبوة ، وبديهة النبوة لم يصدق هذا كله ، بل أجاب باقتضاب « بل سولت لكم أنفسكم أمراً »[3] ، وتصرمت الأعوام ... ونجا يوسف ومضى إلى مصر كما تروى ذلك سورة يوسف القرآنية ، وعلت منزلته في الإدارة الحاكمة ، ثم أدت ظروف القحط في أرض كنعان إلى ذهاب اخوته إلى مصر طلباً للقوت ، وتعرفه بالتالي عليهم ، ثم تعرفهم هم عليه ، ورحيل يعقوب من أرض كنعان إلى مصر

---

(١) يوسف : ١٦
(٢) يوسف : ١٨
(٣) يوسف : ١٨

للقاء ابنه واستقرار العائلة بمصر ، والمشهد المؤثر في قصة الجنان الصبور هـذه عندما قدم بنوه عليه بقميص يوسف فقال وهو الضرير لكثرة ما بكى ولده «اني لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون »[1] .

وترد قميص الأبن المظلوم البصر إلى عيني الأب الحنون ...

وإذا كانت الأبوة القرآنية عطاء محضاً لا يسف ، بل يلتزم بأمر الله ، فان أوضح ما يعبر عن فلسفة هذه الأبوة — النموذج في الحياة ما جاء في عظة لقمان لابنه ليكون انساناً مهذباً لا يختال ولا يتكبر ، ولا يكثر من الأدعاء مع الحزم في الأيمان بالخير ، والوقوف في وجه الشر ، « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور »[2] .

إن الأبوة في القرآن مسؤولية عظيمة ،تتركز فيها الرحمة والعطف والتضحية من أجل الصغير ، لكنها تؤمن أولاً وآخراً بالله سبحانه الذي هو كما ورد في الحديث الشريف « أرحم بنا من آبائنا وامهاتنا» وهي في نموذجيتها تظل انسانية ، إذ انها تظهر صراع الإنسان مع نفسه عندما يتعارض مبدؤه مع حبه لولده ، فان الفهم الأعمق للطبيعة الانسانية يقر هذا وان يكن الشخص موضوع المحنة نبياً أو صديقاً أو صالحاً ، وبذلك تظل هذه الأبوة في نطاق المنظور الممكن التحقيق وهو هدف القرآن وقد خص لقمان ابنه بنصائح :

في مجال العقيدة نصحه ان يلتزم بذلك المبدأ العظيم الذي طبقه على نفسه وهو التفاني في الايمان بالله ، وطاعة شريعته وتطبيقها في حياته ، ثم طاعة والديه ، لما يلقيان في سبيله من عناء ومشقة ، ووصف القرآن حمل الأم بابنها على لسان لقمان

---

(١) يوسف : ٩٤
(٢) لقمان : ١٧

بأنه « وهن على وهن » أما إذا تعارض الأمران : الإيمان بالله وطاعة الوالدين فان الإيمان هو المقدم « وإن جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب أي ثم إلى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعلمون »[1] .

أما في مجال السلوك فقد طلب لقمان إلى ابنه أن يحقق ايمانه في سلوكه فإذا عظم الله في نفسه ، صغر هو عند نفسه فتواضع لله .

(١) لقمان : ١٥

الفَصْل الثّاني

الامومـــة

وإذا كان هذا شأن الأبوة في القرآن وفي الواقع ، فان للأمومة شأناً آخر ، إنها الحنان المحض ، والتفاني المطلق الذي لا يعرف حدوداً ، وقد يكون ضاراً في كثير من الأحيان ، وينبع هذا الموقف الشعوري من معاناة الأم الطويلة في الحمل والولادة والتربية بحيث يصبح الطفل جزءاً منها ، لا من جسدها بل من كيانها الخاص الذي لا تستطيع الحياة بدونه ، بينما يكون بامكانها الاستمرار في الحياة إذا فقدت عضواً من أعضائها مثلا ، ويصف القرآن معاناة الأمومة هذه بدقة ففي قوله « حملته أمه وهنا على وهن » وقوله « حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً » فاذا واجه الإبن مخاطر من الداخل أو الخارج تشعر الأم أن كيانها هو المهدد ، فيضيع صوابها،وتحاول بكل ما وسعها أن تنقذ الصغير ولو على حساب حياتها هي .

فمريم عليها السلام ، وهي العذراء الطيبة الطاهرة ، التي نذرت نفسها للعبادة ،تجد نفسها حاملا بين عشية وضحاها فيعتريها الهلع،وتثور عليها عذريتها وصلاحها ، حتى تطمئن إلى أمر الله فتصبر ، وتتوقف عن الشكوى وتحاول أن

تتوارى عن الأنظار حتى لا ينتبه الناس إلى ظهور امارات الحمل عليها ، فاذا ولدت فقد بان ما كانت تحاول اخفاءه ، وتقسو عليها الاشاعات وهي الموقنة انه لم يمسسها بشر ، وتخشى ان يمس الصغير سوء وهي المسؤولة في نظـر الآخرين ، فتصعد إلى بارئها شكواها الضارعة متمنية « يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » والموت في نظرها قد يكون حلاً يائساً للإشكال الذي واجهته بولادة الطفل ، والخوف على حياة الطفل ، مع أنه ربما أدى موتها إلى ازدياد فرص ضياع الطفل لكنها الأمومة التي تظهر نفسها فوراً مؤكدة حرصها عـلى طفلها بكل التضحيات ، بل بحياتها ان تطلب الأمر ذلك .

ويبدو موقف أم موسى الهلع مثلاً آخر للامومة التي لا تأبه لشيء إلا للصغير الذي يراد انتزاعه منها ، لقد أمرت أن تلقي فلذة كبدها في اليم مع تأكيد بانه سينجو ، وسيعظم ، وسيكون صاحب رسالة ، وتفعل ما أراد الله سبحانه .. لكنها تنطوي على قلق كثير ، حتى إذا رأت ابنها الرضيـع في قصر فرعون بلغ بها القلق اقصاه وقد دعيت لارضاعه حتى كادت لاختلاط مشاعرها عليها بين الفرح والخوف ان يفتضح أمرها ، فيعرف انها أم الرضيـع فيقضى بالتالي عليها وعليه ، وكان ان هدأت إلى رزانة الإيمان : « ولولا ان ربطنا على قلبها » [١] .

ونعود مرة ثانية كما قلنا بالنسبة للابوة ، لنقول في الأمومة القرآنية انها هي أمومة الواقع ،وحياتنا نحن الشخصية تقيم يومياً أمثلة لاحصر لها على الأم الـتي تتحول إلى امومة وأمومة فقط .

---

(١) القصص : ١٠

الفصل الثالث

البنوة

في حين ان الأب يعتبر استمرار الابن استمراراً لوجوده ، وتعتبره الأم تتميماً لوجودها نفسه ، فان موقف الابن من أبويه يبقى رجراجاً بعض الشيء، خصوصاً إذا علمنا ان القرآن الكريم يكرر في آيات عدة قوله تعالى «ووصينا الإنسان بوالديه »[1] .

« ووصينا الإنسان بوالديه احساناً »[2] وما شابه ، ثم يجعل القرآن البر بالوالدين بعد الإيمان بالله : «وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً»[3] حتى ان القرآن ينصح للابن إذا تعارض بره بوالديه مع ايمانه بالله الا يتخلى عن الايمان ، لكنه يصر على تذكيره « وصاحبهما في الدنيا معروفاً » رغم اضرارهما بقضية ايمانه .

---

(١) العنكبوت : ٨

(٢) الأحقاف : ١٥

(٣) الاسراء : ٢٣

هذا الاكبار الملحوظ لقضية الوالدين يواجه من الابن في كثير من الأحيان بالعقوق ، ومحاولات الخروج على طاعتهما،ولو كانا على حق فيسائر ما يأمران به الأبن أو ينهيانه عنه ، ولعل من أسباب ذلك انه في الوقت الذي يحاول الابن ان يستقل بنفسه ككائن له شخصيته وتصرفاته وحياته ، يصر الأبوان ان يفنى فيهما حفظاً له وخوفاً عليه ، وفداء منهما لنفسيهما بنفسه ، ويزعجهذا الابن كثيراً وهو يتطلع إلى الإستقلال والبعد عن التبعيةالمطلقة .

وأول قضايا العقوق في القرآن ، قضية ابن نوح ، وهي تؤيد ما حاولنا أن نعلل به عقوق الابن ، فان ابن نوح حاول بشق الطـــرق أن يكون ذا شخصية مستقلة عن شخصية والده لا لشيء إلا لإثبات جدارته بذلك ، فقد أصر على انكار دعوة والده لكنه لم ينضم إلى قومه في اضطهاده ،حتى إذا ركب السفينة ودعاه إلى الركوب فيها قال « سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » وكان جواب نوح « لا عاصم اليوم من أمر الله » .

وذهبت استغاثات نوح ادراج الرياح ومات الأبن وهو يصارع الأمواج دون أن يرضى بصحبة والده الذي وعده بالحماية والنجاة .

وقصة يعقوب وبنيه مثل آخر للعقوق المسبب عـــن الحسد وسوء التقدير للعواقب ، فقد أراد أبناء يعقوب ان يهتم بهم أبوهم أكثر مما يفعل فيذلك الوقت، واختاروا لإقناعه بذلك أبشع الوسائل : قتل أخيهم الصغير أو إبعاده عن وجه أبيهم على الأقل ، وكان لهم ما أرادوا بل ان يعقوب شك فيالأمر ففقدوا المزيد من عطفه بدلاً مما كانوا ينتظرونه من حنان واطمئنان ورحمة ،ثم اضطروا أخيراً بعد لقاء يوسف إلى الاستغفار والاعتذار إلى الأب والأبن الصغير الذي تزعمهـم رغم أنوفهم .

وكما قلت من قبل فانالقرآن يعرض الوجه الآخر لكل الأمور ، والبنوة ـــ

النموذج في القرآن ليست بنوة ابن نوح أو أولاد يعقوب بل بنوة اسماعيل الأبن الوحيد ، المدلل من أبيه ، الشديد البر به ، فما ان قال ولده « يا بني اني أرى في المنام اني اذبحك » حتى قال « يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين » [1] .

والأب لا يطلب إلى ابنه عادة ان يموت ليبقى هو ، بل العكس هو الذي يحصل في أكثر الأحيان ، ومع ذلك فان اسماعيل نجح في محنة البر هذه ، واستطاع أن يثبت على طاعة والده ، رغم العقبة الكأداء التي كانت تكفي لتمرده ، إذ يطلب اليه وهو اليافع المحب للحياة أن يرضخ للذبح بيد والده ، ان المثل الأعلى للبنوة في برها وطاعتها هو هذا المثل .

غير ان الله سبحانه يأبى أن تكون التضحية بغير معنى ، والقرآن الكريم صريح في ان البر بالوالدين ينبغي أن يكون في نطاق الايمان بالله ، والمبادىء العامة للدعوة الإلهية ، فاذا تعارض ، فلا يعق الابن ، لكنه لا ينقاد لوالده ، ويحاول ان يجد مخرجاً من مأزقه لا يضطر معه إلى عقوق أو كفر .

وبنوة القرآن مسببة ، بمعنى ان الله سبحانه يعرض الأسباب للبر ، فقد حملته أمه كرها ، ووضعته كرهاً ، وأرضعته وربته ، وقد كانت في حياة الرسول مواقف وكلمات وضحت الفلسفة القرآنية وطبقتها في حياتها وحاولت أن توصلها إلى حياة الآخرين .

وما كان ذلك كله عبثاً ، فان مجتمعنا رغم عواصف التغيير التي تهب عليه من كل ناحية ما زال يحتوي على الكثير من قيم الخير والبر والطاعة للوالدين ، والسبب الأول هو الإسلام وتقاليده العريقة في ذلك .

---

(١) الصافات : ١٠٢

الفَصْل الرّابع

الأخـــوة

لعل الأخوة وعلاقاتها كانت من أولى الاهتمامات البشرية للمثل السيء الذي واجهته في شخص قابيل في موقفه من أخيـه هابيل في الوقت المبكر من تاريخ البشرية . وتقص صورة المائدة قصة النزاع الذي كان عبارة عن حسد شديد من قبل الأخ لأخيـه لأن الله تقبل قربان أخيه ولم يتقبل قربانه هو فـكان أن قتله ، وكانت تلك جريمة القتل البشرية الأولى وهي سابقة خطرة في مجال علاقة الأخ بأخيه ، وفي مجال العلاقات البشرية عامة وقد يقال من الناحية الجدلية انـه لم يكن ممكناً أن يقتل قابيل غير أخيه لأنه لم يكن غيرهما ، لكن الأمر يبقى على أي حال غير مبرر ، وما كان ذنبا لهابيل أن يتقبل الله قربانه ، بيد أن قابيل الذي وجد الجرأة على ارتكاب الجريمة البشرية الأولى لم يجد الجرأة على الاستمرار في جريمته هذه عندماارتبك ارتباكاً شديداً بعد القتل في كيفية اخفاء الجثة ، وكان أن تدخل الغراب ليمثل المشهد الختامي من مشاهد المأســاة فيعلق الأخ المفجوع « يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي»[٢]

---

(١) المائدة ـ ٣١ راجع تفسيري ابن كثير والبغوي ١٢٢/٣ .

لقد كانت جريـــة أولى وبشعة ، ولكن كانت أيضاً سبباً هاماً من أسباب نشأة الضمير الانساني الذي وعى معنى الأخوة بيدأن هذه اليقظة كانت متأخرة في هذا الحدث ، كما كانت متأخرة في قصة يوسف مع إخوته ، ففي حين لم يكن يوسف البريء الصغير يدري من أمره شيئاً كان أخوته يدبرون في الخفاء وسيلة للتخلص منه ، وعندما فعلوا ذلك ، ارتكبوا جريمة أخرى بتلفيق قصة مخترعة للوالد المفجوع تبرر إختفاء يوسف ، ومضت سنون وسنون ، لكنهم لم ينسوا حقدهم على الصغير المفضل ، فقال أحدهم عندما اتهم بنيامين بالسرقة في مصر « ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل » [1] ثم أظهروا توبتهم وندمهم عندمـــا عرفوا يوسف من جديد ، وقد صار سيداً لمصر .

بيد أن الأمر هنـا وان وجه ادانة أشد لعلاقة الأخوة ، لا يخلو من بعض الأشياء الدالة على الكثير ، فقـد رضي الاكثرون من الأخوة بإبعاد يوسف عن والده ، لكنهم اختلفوا في طريقة الإبعاد ، وأبى بعضهم الموافقة على قتله ، وقال هؤلاء صراحة « لا تقتلوا يوسف » وعندما هددوا بضياع بنيامين كما ضاع يوسف تيقظ ضمير أكبر الأخوة ، وقـــد أوشك أن يكون في مركز الأب ، فعرض تقديم نفسه رهينة مقابل اطلاق سراح بنيامين مذكراً إخوته بجريرتهم في إضاعة يوسف « ومن قبل ما فرطتم بيوسف » إذن كان للأخوة من يدافع عن مثلها ، وأن يكن بعد فوات الأوان كما قلنا ، على أن للأمر وجهاً آخر ، فليس كل الأخوة أعـــداء فيما بينهم فإن أخت موسى تواجه وصول موسى إلى أيدي الحاشية الفرعونية برباطة جأش عزت على الأم ، فتنقذه بحكمتها وتنقذ الأم عندما تعرض على هؤلاء أن تجد لهم مرضعة للصغير الذي وجدوه ، وما كانت المرضعة إلا أم الطفل الضائع موسى .

---

(١) يوسف : ٧٧ .

وموسى وهارون وهما الرسولان الكريمان يقضيان حياتهما في تعاون تام وتكامل ملحوظ ، فقد كان موسى عليه السلام هو الأذكى ، لكن هارون كان هو الأحسن منطقا،ولم يحصل بينهما خلاف أساسي أبداً إلا ما كان من اختلافهما حول الوسيلة ، عندما اندفع موسى للقاء ربه تاركاً هارون بين قومه الذين سرعان ما ارتدوا إلى وثنيتهم ، ورأى موسى انه ما كان ممكناً أن يحصل ذلك لولا تهاون هارون . وكان رأي هارون هو « ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني »[1] لقد غلب على أمره . لكنه لم يتخل عن مبادئه ، وعادت المياه إلى مجاريها بين الشقيقين الداعيتين إلى الله .

ان الأخوة – النموذج في القرآن قوية وراسخة . حتى انه مثل العلاقات التي ينبغي أن تقوم على أساس من الايمان بعلاقات الأخوة فقال : « إنما المؤمنون أخوة »[2] . إلا إنه بشكل عام لا تبلغ مكانة علاقات الأخوة ما تبلغه علاقات الأبوة والأمومة وهذا أمر مشاهد في حياتنا الواقعية وله شواهد كثيرة في التاريخ .

---

(١) الاعراف - ١٥٠ راجع تفسيري ابن كثير والبغوي ٥٥٦/٢ ،
(٢) الحجرات - ١٩ « « « « ١٤/٨ .

الفصل الخامس

الزوجيـــة

ربما كانت علاقة الزوجية ، هي أخطر العلاقات الإنسانية من حيث أن المفروض فيها الاستمرار ، فإن العلاقات الأخرى أياً بلغت قوتهـــا تنتهي إلى انبتات أو ركود على الأقل لموت أو تباعد أو خصام أو ما شابه ، إلا الزوجية التي يبيت الزوجان فيها النية على الاستمرار منذ اللحظة الأولى ويحاولان جاهدين ذلك رغم كل العقبات التي قد تقف في طريقها .

وقد أوضح القرآن أسباب الإستمرار هذا ، واقبال الناس جميعاً تقريباً على علاقات الأسرة رغم متطلباتها ومسؤولياتها فركزها فيما يلي :

١ ــ « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً » [١] وفسرها المفسرون بأن المقصود خلق حواء من ضلع آدم ، لكننا نرى أن هذا التعبير القرآني الدقيق يراد به ان الحاجة إلى الزوجية جزء لا يتجزأ من فطرة الإنسان ، إنها حاجة فطرية أعمق من أن تكون بيولوجية بل « نفسية » ولذا ساغ القول « من أنفسكم » .

---

(١) الروم : ٥١ .

٢ - « لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » وهو سبب ثان وهام ، ذلك أن الحياة باضطرابها ، والظروف بتقلبها ، تجعل من الضروري للانسان أن يثوب إلى بيت يطمئن إليه ، وصدر رحب يسكن إلى حنانه، وقلب هادىء فيما حوله من ترجرج واضطراب . وما كان ذلك أبداً أمراً سلبياً بل هو«مودة» متبادلة قائمة على علاقات الند بالند وإلا كيف يشعر الإنسان بمودة للآخر إن لم يكن ندا له ،على أن الأهم من ذلك ما قاله القرآن بعد ذلك «رحمة» وهي أعظم المشاعر الإنسانية وأكثرها إثارة للاكبار وعدم الاعتراض ، إنها ليست الشفقة ولا غير ذلك من العواطف التي تثير اعتراضاً واشمئزازاً ، بل هي رحمة مشتقة من أعمق أعماق الإنسان ومثل لرحمة الله سبحانه بعباده ، والرحمة متبادلة أيضاً بنص القرآن : « وجعل بينكم مودة ورحمة » و « بينكم » تفيد التبادل .

٣ - « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة »[1] وليس هذا بالشيء القليل !! إن علماء النفس يقولون : إن العلاقات البيولوجية قد تحكم الزواج في مراحله الأول ، بيد أن التناسل ينحيها إلى المرتبة الثانية ، فيصبح الأولاد هم الرابطة الأولى والأخيرة بهم تستمر الحياة الزوجية ، بل ما هو أعمق من ذلك الحياة الشخصية ، إذ أن الوالدين كما قلنا يعتبران البنوة استمراراً لهما وجوداً ومصيراً .

وتأكيد القرآن على « فطرية » الزوجية ، وعظم انجازاتها ، يجعل من غير الممكن القبول « بالتبتل » أي الإعراض عن الزواج بقصد التفرغ للعبادة ، والإنقطاع لها أو لأي سبب آخر .

وتأكيد القرآن على « المودة والرحمة » و «البنين والحفدة » ينحي من واجهة الشرف في علاقة الرجل بالمرأة تلك العلاقات العابرة التي يرتكس بها الإنسان في

---

(١) النحل - ٧٢ .

مهاوي الحيوانية المحضة ، ويدفعها « بالزنا » ذلك ان الزوجية « مودة ورحمة » و « سكن » ولا شيء من ذلك يتحقق بالعلاقات المختلسة وما شابه والزوجية ـ النموذج في القرآن إذن هي، تلك التي تحقق الأغراض الثلاثة : الفطري الإنساني البيولوجي ، والشعوري الودي ـ والإجتماعي التناسلي .

فإذا فقد عامل من هذه العوامل كان الزواج مهدداً بالانفصام أو ما يقرب من ذلك . ولا يخلو الأمر من عوامل أخرى يقوي بعضها علاقـــات الزوجية ، ويضعفها البعض الآخر وعلى رأس أسباب الضعف اصطدام رغبات الزوجة بمبادىء الزوج .

وهذا أمر يعرض له القرآن بالتفصيل في عدة مواطن ، في مثل زوجة نوح ، وزوجة لوط ، إلى حد ما ولأسباب أخرى زوجة العزيز .

فإن زوجة نوح لم تنضم إلى طرف المؤمنـين بالله وبنبوة زوجها وربما كانت هي التي حرضت إبنها على ذلك ، فاختارت الحياة السهلة ، التي لا تكلف شيئاً، وتخلت عن زوجها في محنته في مجاهدة قومه ، واضطهادهم له ، ففقدت الزوجية بذلك معنى « الود والرحمة » بالإضافة إلى فقد معنى « السكن » ذلك انهـــا تحولت إلى عدو له في منزله ، تقض عليه مضجعه ، وتتعبه فيما أراد هو أن يرتاح ويهدأ فكان أن غرقت فيمن غرق .

والأمر نفسه كان مع زوجة لوط ، لكن بشكل أصرح وأوضح ، فقـــد وقفت المرأة إلى جانب قومها صراحة ، وحرضتهم على زوجها ، وعملت الكثير لافشال دعوته ، وكان مصيرها كمصير قومها الهلاك .

وإذا كان صراع لوط ونوح مع زوجتيهما هـو صراع عقائدي بمعنى من المعاني ، فليس كذلك شأن امرأة العزيز ، التي انزلقت إلى الخيانة الزوجية لميلها إلى يوسف .

والقرآن ـ سواء كان ضعف العلاقة الزوجية ناجماً عن خلاف مبدئي أو خلاف آخر - يشجب ذلك كله ويدمغ المخطىء مصراً على أن العلاقة الزوجية هي تلاؤم وانسجام ومودة ورحمة . وليس الطرف السلبي هو المرأة دائماً ، فصحيح قول الله « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم » [1] لكن الزوج يكون أحياناً هو العدو ، عدو الوجه الآخر كما يعرضه القرآن في مثل زوجة فرعون ، فقد كفر الزوج وبغى ، وادعى الألوهية ، وثابرت هي على إيمانها واطمئنانها لمبدئها ، وماتت مؤمنة راجية مستسلمة لربها داعية أن يخلصها من فرعون وطغمته .

وزوجة أبي لهب تعرض مثلاً سيئاً للتلاؤم المرفوض، التلاؤم في الشر « وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد » ويصل بنا هذا إلى أمر هام ، إن القاعدة العامة أن تكون العلاقة الزوجية هادئة ومستقرة ، بيد أن لهذه القاعدة استثناءات ، والقرآن يعرض لهذه الاستثناءات فيدعو جميع الأطراف في العلاقة الزوجية إلى الإلتزام بالإيمان في الظروف الطارئة ، فاذا اختلفت الأمور واضطربت في المنزل فإن الأقرب إلى « الإلتزام » هو الأقرب إلى الصواب .

ان العلاقات الإنسانية النموذجية في القرآن هي علاقات « تعارف » بأسمى معاني هذه الكلمة ، والخلافات كلها عارضة ما لم تتصل « بمبدأ » وليس أي « مبدأ » إنه مبدأ « الإيمان » في مواجهة أقسى الظروف ، فإذا كان الخلاف مبدئياً ، فإن القرآن من أنصار هذا الخلاف ، من أنصار الإصرار على المبدأ أياً كانت التضحيات .

وفي علاقات الرحم التي عرضنا لها مواطن كثيرة تصلح أساساً لنماذج ناجحة ، ذلك إنها مشتقة من الواقع ، وليست أمراً مجرداً يعرض كمثل أعلى مستحيل البلوغ ، ولعل هذا الطابع هو الذي يجعلها ممكنة التحقق ، وصالحة القدوة .

---

(١) التغابن ـ ١٤ راجع تفسيري ابن كثير والبغوي ٨/٣٧٩ .

الباب الخامس

نمـــوذج فريـــد

الأنبياء في القرآن من حيث حمل الرسالة والطبيعة البشرية

ما هي النبوة ؟ ومن هم الأنبياء ؟

قال ابن سيده : النبو : الارتفـاع ، وقد نبا ، والنبوة والنباوه والنبي ما ارتفع من الأرض . وفي الحديث: فأتى بثلاثة فرصة فوضعت على نبي ، أي على شيء مرتفع من الأرض ، من النبـاوة والنبوة : المشرف المرتفع من الأرض ، ومنه الحديث : لا تصلوا على النـبي أي على الأرض المرتفعة المحدودبة . والنبي : العلم من أعلام الأرض التي يهتدى بها ...

أما اشتقاق النبي المعروف في الاصطلاح ، فقيـل انه استعير من النبي بمعنى المرتفع من الأرض ، لارتفاع قدره .

وقيل أنه من «النبأ» بمعنى الخبر ، لأن النبي في رأي يعقوب ابن السكيت : هو من انبأ عن الله [1] .

والنظر الصحيح يرشدنا إلى امكان الجمع بـين الأصلين اللغويين فلا شك أن النبي منبىء عن الله ، وهو في الوقت نفسه « متفرد » أو بارز عن بقية الناس ، بشخصه وبطبيعة مهمته .

أما النبوة في الاصطلاح ، فهي سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوي الألباب

---

(١) لسان العرب ٢٠/١٥٢ وما بعدها .

من خليقته ، ليزيح بها علتهم ، فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة . والنبي على هذا : إنسان أرسله الله مبلغاً عنه لهداية الناس [١] .

والتفرقة بين معنى « الرسول » ومعنى « النبي » تعتمد على الواقع أكثر مما تعتمد على الأصل اللغوي ، أو المغزى الاصطلاحي ، ذلك أن الإمام أحمد روى عن رسول الله ﷺ أن عدد الأنبياء ألف وأربع وعشرون ألفاً ، بينما لا نعرف من أسماء الكتب السماوية إلا صحف إبراهيم ، الزبور ، التوراة ، الانجيل ، والقرآن .

وعلى هـذا قال علماء أصول الدين : أن الرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، أما النبي فهو من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ ، وإلا لأنزل الله عليه كتاباً [٢] .

وقد بدأ التشكيك في النبوات في التاريخ الإسلامي منذ مطلع القرن الثاني الهجري عندما جرى جدل مشهور بين الجهم ابن صفوان (١٢٨ هـ) وإحدى الفرق الهندكية في ترمذ وما وراء النهر ، وكانت حجة هؤلاء المجادلين إنه إذا كانت النبوة وما تأتي به مخالفاً للعقل فلا حاجة إليها ، وإن كان ماجاءت به موافقاً للعقل فالعقل يغني عنها [٣] .

وبدأ المسلمون يردون على شكوك وتشكيك غير المسلمين في كتبهم الكلامية فرأوا في تعليلهم لضرورة النبوة إنها تأتي للتوغل بالبشر فيما عجزت أو قصرت

---

(١) شرح المواقف ٢/٨ ، غاية المرام للآمدي ٢٢٥ ، العقائد النفسية ٤٥٧ .

(٢) الصابوني : النبوة والأنبيـاء : ١٣ والتفرقة غير دقيقة ، فقد يوحي الله بكتاب إلى جميع الأنبياء ثم تنسخ هذه الكتب في رسالات من بعدهم فتنتهي مهمة تلك الكتب وتختفي .

(٣) الامام أحمد ـ الرد على الجهمية ٧٢ ، الانتصار للخياط ٢١٥ ، المواقف ٣/٨ .

عقولهم من مصالح دنياهم وأخراهم [١] .

والشكوك الحديثـــة والمعاصرة في نبوة الأنبياء تنصب على أمور تبحث في علوم النفس والإجتماع والأخلاق والتاريخ ، بيد أن أكبرها تنصرف إلى مــــا نسميه جغرافية النبوة « فمن الغريب عند هؤلاء أن لا يكون هناك انبياء إلا من الساميين ، وفي المنطقة الشامية وما يجاورها بالذات دون بقاع العالم .

يحاول عباس محمود العقاد أن يجيب على هذا التساؤل بنظرية حول قيــــام الأنبياء فيما يسميه « مدن القوافل » لأن الرسالات عرفت على الدوام في مدينة حولها صحراء ، أو في صحراء على مقربة من المدينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذي يرشحها لقيــــام الدعوات الدينية .

فهناك أحوال نفسية تنشأ عندما يكون الإنسان بين البداوة والحضارة ولا تهيئه لها الحضارة على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لا بد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين، ولم يحدث قط انهما التقيا وامتزجا على هذا النحو في غير البلاد التي قامت عليها الحضارات الأولى ، وظلت طويلاً جامعة بـــين الصحراء والمدينة والأقطار المتحضرة [٢] .

وليس من وكدنا في هذا الباب ان نعرض لما قام به الأنبياء ومــا ثار حول رسالتهم من تنازع أو شكوك ، وإنما هدفنا الذي نحصر جهدنا في تبيانه محاولة ابراز هذا النموذج الفذ من الناس كما يبدو في القرآن الكريم ، إنسانياً إلى أبعد حد ، ومميزاً في الوقت نفسه إلى حد بعيد أيضاً .

---

(١) العقائد النفسيه ٤٥٧ ، المواقف ٤/٨ .

(٢) ابراهيم أبو الأنبياء ٢١٣ وما بعدها .

وفي تلك السلسلة المضيئة من الهدى والنور عبر عصور التاريخ تبرز أسماء خمسة رسل يسميهم العلمـــاء المسلمون « أولو العزم من الرسل » وهم : نوح إبراهيم ، موسى ، عيسى ، ومحمد عليهم السلام .

وسندرس ظاهرة « النبوة » في تفردها ، وبشريتها، من خلال الخمسة هؤلاء، لأن أخلص وأصفى خصائص النبوة عبر التاريخ تمثلت فيهم كما يبدو في القرآن الكريم والتوراة والإنجيل ، وفي أقوال علماء الأديان .

١ - نوح عليه السلام :

أقدم أولي العزم من الناحية التاريخية نوح عليـــه السلام ، ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال . كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام [١] .

ذكر نوح في القرآن في ثلاثـة وأربعين موضعاً ، وذكرت قصته مفصلة في القرآن الكريم في كثير من السور الكريمة منها : الاعراف ، هود، المؤمنون، الشعراء ، القمر ، وذكرت له سورة خاصة تسمى باسمه هي « سورة نوح » .

ويبدو واضحاً في الآيات الكثيرة التي وردت في القرآن عن نوح عليه السلام ودعوته تلك الميزة الفريدة التي تميز بها نوح بالإضافة إلى نبوته هذه الميزة هي « الصبر » والمثابرة ، الصبر النموذجي كما يبدو في قوله تعـــالى « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » [٢] .

---

(١) رواه البخاري ، راجع ابن كثير ـ البداية والنهاية الجزء الأول .

(٢) العنكبوت ـ ١٤ .

فإذا أخذنا الرواية القائلة أن نوحا بدأ دعوة قومه إلى الله وعمره خمسون سنة ، تكون السنوات التي قضاها في جهاده الطويل تبلغ التسعمائة عام ، كانت حصيلتها في أكثر الأقوال ايمان ثمانين نفساً من قومه فقط ، ليس بينهم إمرأته وأحد أبنائه .

ويبدو هــــذا الصبر النموذج في تفصيلات القرآن لقصة نوح مع قومه ، فهو يذكر مخاطباً ربه أنه امتثل أمره وانصرف إلى دعوة قومه إلى الدين الحق بعد أن ضلوا عنــه ، وألـّهوا الأصنام « ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا » وبدأ دعوته بهدوء وبغير ضجيج سراً ، ينفرد بمن يتوسم فيهم بعض الحكمة والتعقل، فيدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وينذرهم العذاب الأليم إن لم يؤمنوا ويصدقوا ، بيد أن هؤلاء كانوا ينصرفون ساخرين مقبحين فعــله ودعوته ، فإذا ألح وأصر وكرر ، سارعوا إلى وضع أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما يقوله نوح وما ينادي به .

عندها رأى النبي الكريم الصابر أن يغير أسلوبه ، فجهر بدعوته وانطلق إلى مجتمعاتهم ونواديهم يعظهم ويذكرهم ، ويحذرهم عذاب الله ، دون جدوى على أن اسلوبه هذا أثار عليه كبراء قومه ممن كانوا يخافون على سلطانهم وسطوتهم منه ، فتنادوا للقيــــام بعمل جماعي ضده ، وتعاقدوا على ألا يذروا آلهتهم وأصنامهم لأقوال نوح أياً كانت دعوته وإصراره .

ودار في خلد نوح أنه ربمــــا اقتنع بعض هؤلاء بما دعاهم إليه لكنهم خافوا سيطرة الأعراف الإجتماعية ، وما ينجم من ضرر لأشخاصهم من جانب قومهم ان آمنوا ، فدأب على المزاوجة بـين أسلوبي السر والاعلان ، يسر بالدعوة لمن يأنس منهم استماعــــاً وتقبلا ، ويعلن مهدداً ومقرعاً ومنذراً ، أولئك الذين غلظت مداركهم ، وثنوا اعطافهم ترفعاً وكبرياء .

لكن صبر نوح الطويل لم يؤت ثماره،وبقي القوم في ضلالهم وبدأوا يتجرأون على نوح بقوارص الكلم ، وقبيح الفعل ، فاتهموه بالغرابة والضلال عن جادة التعقل والصواب «قال الملأمن قومه انا لنراك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين »[1].

واتهموه بالجنون « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » . « إن هو إلا رجل به جنة » وغاظهم صبر نوح على ادعاءاتهم واتهاماتهم ، ومداومته على محاولة هدايتهم ، فبدأوا يهددونه ويتوعدونه « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » .

هددوه إذن بالرجم حتى الموت ، فلم يرتدع ، ولم ير في اضطهادهم له موجباً للكف عن نداء الحق في أعماقهم ، وتهيبوا الإقدام على ارتكاب الجريمة في حق إنسان لا يريد لهم إلا الخير ، إنه يعدهم رفاهاً وعزة وسلاماً كنتيجة للإيمان «استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم باموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً[2] .

فهل يقتلونه لأنه يعدهم الخير والرفاه والحياة ؟.

وصمموا اخيراً على أن يقبلوا تحديه لهم ، فقالوا إجماعاً « إئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

وهكذا بعد المئات من السنين في الدعوة إلى الحق والهدى والنور ، لم يمل ولم يضجر الداعي، إنما ضجر المدعوون . وبدأ به وصبره المعروف عنه انصرف نوح اتباعاً لأمر الله إلى صنع الفلك استجابة لتحدي طواغيت قومه . وركب

---

(١) الأعراف ـ ٦٠ .

(٢) نوح ـ ١٠٠ .

نوح فلكه مع الذين آمنوا به ، ثم كان الطوفان المشيع بصرخة نوح التي لم تأت عن فروغ صبر ، بل عن اقتناع عميق بأن الدنيا استنفدت من هؤلاء القوم كل بذور الخير والنور بحيث لن يكون فيهم أو في أعقابهم خير « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »[1] .

إن شخصية نوح الفريدة ، تظهر مدى ازدواج النبوة التي هي في الأصل تجاوز بين القدرات الإنسانية العادية ، مع إنسانية الإنسان العادية ، فنوح تفرد بالإنباء عن الله سبحانه ، وهو ما لم يعتده الناس،من قبل ، لذا اتهموه بالضلال والجنون ، وتفرد أيضاً بصبره الطويل المنقطع النظير ، الذي يكاد يكون غير بشري ، وتبدو نموذجية صبره هذا في تغلغله في أعماق الضمير الشعبي باعتباره المثل الأعلى لما ينبغي أن يكون ، إذ يسارع الكثيرون من الناس إلى استصراخ صبر نوح عندما تتكاثر عليهم بواعث الغضب ونفـــاد الصبر فتكاد تغلبهم على هدوئهم فيقولون « يا صبر نوح » و « يا صبر أيوب » .

أما بشريته بضعفها وعاديتها فتبدو في تلقيه لنبأ كفر إبنه ، وإبائه ركوب الفلك ، ظناً منه أن أباه كاذب في نبوءته ، فقال: « سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » وضعف نوح عن تقبل هذا المصير لولده وهو الذي دعا ربه « رب لا تذر علىالأرض من الكافرين دياراً » فسارع إلى دعـاء ربه واستغاثته « إن إبني من أهلي وإن قولك الحق » وأجيب الأب الملتاع « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ، « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

مهما كنا باعتبارنا بشراً لا ننتظر من نوح غير هذا ، ذاك أن النبي يظل بشراً رغم كل شيء وربما كان بحكم رسالته أكثر رقة،وأشد تأثراً من الآخرينالعاديين.

---

(١) نوح : ٢٧ .

ب – إبراهيم عليه السلام :

يحتل إبراهيم بين الأنبياء مكاناً بارزاً لاختصاصه بعدة أمور :

١ ـ فهو أبو الأنبياء إذ أن كل الأنبياء من بعده من سلالته

٢ ـ وهو الخليل لقوله تعالى « واتخذ الله إبراهيم خليلا ».

٣ ـ وعلى يديه وضحت الدعوة إلى التوحيد والإسلام تماماً «ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين». «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً».

وإذا كان نوح عليه السلام قد تميز بصبره ، الطويل ، فإن إبراهيم عليه السلام تميز « بسعة الأفق » تلك الميزة التي طبعت حياته كلها بطابع قوامه الجدية الرصينة ، والتعقل الظاهر ، والهدوء المتبصر وهو ما يثبته له القرآن بقوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده وكنا به عالمين » ويقول « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض » ويصفه بآية ثالثة بأنه « حليم » .

بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته إلى ربه بأقرب الناس إليه بوالده «آزر»[1] فقال له « أتتخذ أصناماً آلهة » وقال بأسلوبه العقلي الهادىء « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً»[2].

---

(١) دار جدل كثير حول مغايرة اسم والد إبراهيم في القرآن لاسمه في العهد القديم « تارح » والذي في الأغلب إنه لقب له أصله « آزر بعل » أي خادم البعل ، والمعروف عند الإخباريين ان والد إبراهيم كان صانعاً للأصنام، راجع تاريخ الطبري ج ١ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٤٢/١ تفسير القرطبي عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لابيه آزر » . إبراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص ٣٠ وما بعدها .

(٢) مريم : ٤٢ - ٤٥ .

لقد دعاه إلى الله بالحجة بغير ما لف ولا دوران ، قال له : انك تعبد صنماً تصنعه بنفسك ، ولا يضر ولا ينفع ، لا يسمع و ولا يبصر ، ولست متعالياً عليك بادعائي انني أدركت ما لم تدرك ، فالحق ان الله سبحانه أوحى إلي بهذا، ودوافعي إلى هدايتك دوافع بر محضة ، فانا لا أرضى لك ان تكون من اتباع الشيطان ، الكفرة بالرحمن .

قال ابراهيم ذلك كله ببيانه الحسن ، وبتسلسل منطقي ملحوظ ، وحجج لا يمكن ردها ، لذا لم يستطع والده ان يقرع الحجة بالحجة ، فلجأ إلى سلطان الأبوة[٦]، فقال « أراغب انت عن آلهتي يا ابراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً » لقد جعل القضية شخصية ، بينه وبين ولده، وليس قضية مبدأ تواجه بالحجة ، كما قامت على الحجة ، انه شعر ان خروج ابنه على آلهته هو خروج عن طاعته ، وعقوق له ، مع ان الأمر ليس على هذه الصورة، لهذه كانت اجابة ابراهيم على هذا الخطأ في الفهم اجابة سمحة هادئة « سلام عليك ساستغفر لك ربي أنه كان بي حفياً » .

لم تفت في عضد ابراهيم هذه البداية غير الموفقة للدعوة إلى الله ، فوجه نظره تلقاء قومه السادرين في عبادة النجوم ، واقامة الأصنام والهياكل على مثالها في الأرض ، وانتهز ابراهيم فرصة غياب القوم عن المدينة في عيد لهم فسارع إلى أصنام يدفعها بيده ، ويركلها بقدمه ، مهدماً مكسراً لها ، فلما عادوا راعهم ما حل بها ، فتساءلوا عمن جرؤ على هذا الفعل الهائل ، فانتشر في المدينة ان هناك فتى اسمه ابراهيم ، سمع يذكر الآلهة بسوء ، فجلبوه ليحاكموه ، وكانت تلك امنيته ، ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان ما يعتقدون ، وكان أول ما جابهوه به قول زعمائهم « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » فأجابهم بطريقته المتدرجة الحكيمة التي تميز بها « بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون » . .

وبهت القوم برهة من الزمان لا يستطيعون الرد ، ثم قالوا بتخاذل « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » .

وهنا رأى ابراهيم الفرصة سانحة ليضرب ضربته فصدع قائلاً :

« قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون » .

وكما يكون موقف الباطل العاجز عندما يفقد كل حجة أو منطق ، كذلك كان موقف قوم ابراهيم ، لقد قالوا «حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين» وهنا تدخلت القدرة الإلهية فكانت معجزة [1] برد النار على ابراهيم «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » .

وخرج النبي الكريم من ظهراني قومه لفترة من الزمن حتى يهدأ ما جاش من خواطر ، فأقام في « حران » فيما بين النهرين من أرض بابل ، وما هدأ صراعه مع الباطل ، فقد أمر بدعوة ملك بابل إلى الله خصوصا انه يدعى الالوهية بكل صلافة ، واستغرب الملك أن يدعو ابراهيم إلى اله غيره ، فقال له : من ربك يا ابراهيم ؟ قال : «ربي الذي يحيي ويميت» ، لقد ساعدت ابراهيم الحجة كعادته ، فعرض لحقيقة حياتية يعرفها كل إنسان ، انها تجربة الحياة والموت ، ورد الملك جاهلا أو متجاهلا (انا احيي واميت) ، وفهم ابراهيم ما أراد الطاغية ، انه يملك أرواح رعاياه ، فيحيي من شاء ، ويقتل من شاء . بيد ان هـذا ليس هو المقصود ، لذا سارع ابراهيـم إلى تغيير حجته فقال (ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) :

---

(١) المعجزه عند علماء الكلام ، أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة

وكما كانت حجج ابراهيم دائماً مفحمة ، كانت هذه الحجة كذلك ، سكت الطاغية سكوتاً كسكوت القبر (فبهت الذي كفر) ..

وبدأت الشيخوخة تتسلل إلى أعضاء ابراهيم ،وامــرأته(سارة) عقيم لا تلد ، فتزوج ابراهيم (هاجر) التي ولدت له اسماعيل عليــه السلام ثم ولدت لسارة من بعد (اسحاق) .

وإنفاذاً لأمر الله رحل ابراهيم من أرض فلسطين التي كان قد عاد اليها رحل منها مصطحباً معه هاجر وابنها إلى جبال مكة الجرداء ، وتركها مــع طفلها هناك ، وحول ماء صغير نشأت أمة العرب من نسل اسماعيل .

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ ابراهيم يثوب إلى شيخوخة هــادئة بعد متاعب الرسالة الشاقة ،امر ان يذبح ابنه اسماعيل ،وحيده حتى ذلــك الحين، وبهدوئه ورزانته عرض الأمر على ابنه الفتى فأجاب نداء اللهواستخذىلسكين الشيخ الوالد وهي تهوى على عنق وحيده غير هياب ولا مرتعد ، فكانت رحمة الله بفداء اسماعيل ونجاته ، ليقوم مع ابيه ابراهيم ببناء أول بيتلله علىالأرض: الكعبة المشرفة « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهــدى للعالمين » .

ان هذا التعقل – النموذج الذي تميز به ابراهيم ، طبع حياته كلها كمــا قلنا من قبل بطابعه ، بيد ان بشريته كانت تظهر بين الحين والحين متسائلة ،غير موقنة ، ناقضة على ابراهيم هدوءه ، مؤكدةوجودها ،رغمالنبوةوطول التجربة ورجاحة العقل.

فعندما دعا ابراهيم اباه (آزر) إلى الإيمان بالله ، فلم يستجب له ، ثم كرر دعوته ، وكرر الأب رفضه ، اخذت عوامل الحب للاب على ابراهيم جوانب نفسه ، فداوم علىالاستغفار لأبيه، ومعاملته فيالعقيدة معاملة المؤمنين ، مععلمه

بأن أباه كافر بالله ، على انه لما تبين له ان ايمانه ميؤوس منه كف عن الاستغفار له ، وصارع طبيعته البشرية الإنسانية التي استعملت لفترة على واجبه كنبي(وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم).

ويبدو ضعف ابراهيم – الإنسان في مناسبة اخـرى ، فمعلوم ان الانسان محدود بحواسه ، ومهمة النبوة الأولى تجاوز هذه الحواس بالاتصال بعـــالم غير العالم ، وهو امر أدركه ابراهيم ، بيد ان بشريته غالبته فسأل ربه قائلا (رب ارني كيف تحيي الموتى) فقال الله سبحانه (أو لم تؤمن ؟) قال (بلى) (ولكن ليطمئن قلبي) وكان ان سما الله بالطبيعة البشرية لابراهيم بتحقيق ما طلب ، فسكن ما ثار ، وقوي ما ضعف ، واطمأن ما اضطرب .

ان مثل ابراهيم وهو أبو الأنبياء – يظهر بوضوح ان النبوة لا تعني اختفاء بشرية النبي لكنها تعني سموها ، وسلوكها طريق الحق .

فإذا وصلنا إلى موسى عليه السلام ، وحاولنا دراسته من زاوية كونه نموذجاً انسانياً من الأنبياء أولي العزم ، تتفتح ابصارنا على حياة واسعة الآفاق ،فسيحة الجنبات ، تتشعب بين التاريخ والجغرافيا وعلوم النفس والاجتماع والاخـلاق ، ويركز القرآن على السمات الأساسية لموسى كنموذج في الآية الكريمة (واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان نبياً ...) (مريم / ٥١) .

ان نموذج (موسى) الإنسان أهم ما يلفت فيــه خاصية بارزة في شخصيته وتصرفاته ، وحياته ككل ، تنصب هذه الخاصية في كلمة واحدة تقريباً هي (سرعة التأثر) .

وربما ساعد على تكوين هذه الخاصية أصل موسى ، كفرد من قلة مضطهدة مطاردة ، شأن بني اسرائيل في مصر تلك الآونة ،وقد رافق الاضطهاد والاحساس به حياته منذ ولادته حينما اضطرت والدته إلى وضعه في صندوق ورميه في اليم خوفاً عليه من بطش

فرعون وزبانيته ، وأي بطش أعظم من ذاك الذي يؤثر الإنسان معه ان يرمي بفلذة كبده في اليم على ان يتركه في مواجهة ذلك البطش . حتى إذا استنقذته عناية الله ، كانت لأهوال ولادته آثارها فيفنفسه ،فنشأ حبيس اللسان ، لايستطيع ان يبين عن نفسه تماماً ، وتشاء عناية الله أن يتربى في بيت فرعون معززاً مكرماً بيد ان الاحساس بالغربة والغرابة لم يفارقه ، لذا ما ان استوى عوده حتى بدأ حنينه الصريح إلى قومه المضطهدين يستيقظ فيه ويتوثب في أعماقه وملامحه ،فلما سنحت الفرصة للاختيار بين الولاء لفرعون أو الولاء لبني جنسه اختار قومه دون تردد يقول تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين » (القصص / ١٥) .

ورأى موسى – وهو السريع التأثر كما قدمنا – انه تسرع وانفعل ، وأعلن ولاءه الصريح لبني قومه قبل ان يعد العدة لذلك ، وخاف أن يقتله فرعون ولي نعمته فخرج هارباً من مصر إلى ان بلغ مدين ، وقد برح به الجوع والعطش ، واشتد به الكرب ، وعادت هنا خاصية شخصيته المميزة إلى البروز ، اذ أثاره منظر فتاتين تحاولان ان تسقيا غنمهما فيدفعهما رعاة غلاظ عن الماء وقتاً طويلاً ، وتنوء انوثتهما بالعبء الملقى على عاتقهما ، فيتقدم موسى وهو الغريب الطارىء بأريحية وتفان ، وقد تناسى جوعه وتعبه وأساه فيسقي لهما ثم يعود منهكا إلى ظل يستظل به « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما انزلت إلي من خير فقير » .

وتتطور الأمور هنا ، فلا تشرق شمس اليوم التالي إلا وموسى في بيت والد

الفتاتين [١]، يشرف على غنمه، ويتزوج احدى ابنتيه جاعلاً عمله عند الرجل مهراً لعروسه الجديدة.

وتمر سنون ... يخلد فيها موسى إلى شيء من الأمن والسكينة والهدوء في بيئته الجديدة، ولكن طبيعته المتوثبة سرعان ما تستيقظ، فيضم اليه عياله وامرأته الحامل في شهرها الأخير محاولاً العودة إلى قومه، متحدياً الاضطهاد، منتظراً عقوبة الخطأ الذي ارتكبه قبل الخروج من مصر.

وفي الطريق يفاجأ المفاجأة الكبرى في حياته،تلك التي تقلب كل شيء رأساً على عقب، اذ يثير انتباهه وهج نار تشتعل على مقربة من طريقه، فيمضي اليها ليجلب منها قبساً، وهناك ينزل عليه الوحي ويصبح موسى الإسرائيلي المطارد نبياً من أنبياء الله، وحلقة من تلك السلسلة المضيئة من سلاسل الهدى والنور عبر التاريخ البشري كله «فلما أتاها نودي يا موسى اني انا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وانا اخترتك فاستمع لما يوحي إنني انا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى» (طه ١١/١٤).

ويشتد به التأثر، فتبدو خاصيته الشخصية نفسها لكن في شكل آخر، اذ تتمثل امامه عقبات الدعوة الجديدة كبيرة شامخة شديدة الهول «قال رب اني قتلت منهم نفساً فأخاف ان يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني اني أخاف ان يكذبون، قال سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون» (القصص ٣٣ - ٣٥).

---

(١) يرى بعض المفسرين ان والد الفتاتين هو «شعيب» النبي بيد ان القرائن التاريخية لا تؤيد هذا الرأي.

رأى المصاعب في شخصه ، وفي بيانه ، في حالته النفسية ، وفيمن يريد ان يدعوهم ، لهم عليه ثأر ، وهم طغاة متكبرون ، وهو الضعيف العاجز وكان الأمر الإلهي : إمض مع هارون أخيك،ونحن معك حيثما كنت ، فلم يبق للتردد مجال .. وهكذا عادت خاصيته الشخصية النموذجية سرعة التأثر ، لتفعل فعلها كعامل من عوامل الاندفاع في طريق تحقيق أهداف الدعوة .

وتعطيه الرسالة دفعة قوية من الثقة بالنفس والاطمئنان إلى المصير والنظرة الهادئة إلى المستقبل ، بيد ان خاصيته النفسية تستمر في الظهور في كلامه وسلوكه كأمر لا يمكن اعدامه ولا القضاء عليه ، يصل إلى مصر ويفجأ فرعون بأنه ما جاء مستسلماً ليعاقبه على ما فعل سابقاً بل ليدعوه إلى الله ، يدعوه إلى التنازل عن دعواه الالوهية ، يدعو السيد المطلق لمصر إلى ان يكون أحد المؤمنين بالله، وبموسى رسول الله ... وحسبها فرعون اندفاعة من اندفاعاته المعروفة ..

فما عرف إلهاً غير نفسه « اليس لي ملك مصر ،وهذه الأنهار تجري من تحتي» ثم كيف يجوز لمجرم قاتل ان يدعو الناس إلى الهدى والحق والنور : يا موسى كيف يكون ذلك وقد فعلت ما فعلت ؟!

ولا يحاول موسى عليه السلام ان يعلل ذلك منطقياً أو نفسياً أو فلسفياً ،بل يقول بصراحة : « فعلتها إذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » (الشعراء / ٢١) .

لقد رأى موسى في ذلك كله أمراً بسيطاً متناسق الأحداث والحلقات ، بينما استغربه فرعون أشد الاستغراب ، ولم يستطع فهم شيء منه .

إلا انه يبدو ان تصرفات موسى الواثقة ، وكلامه المندفع ، كل ذلك أثر فيمن حول فرعون ، بالإضافة إلى تأثيره التلقائي في بني اسرائيل باعتباره دعوة

تحريرية ، ينقذهم من مظالم فرعون واستعباده ، ورأى فرعون ازاء هذا ان يظهر ما اعتقده دجلاً في كلام موسى ، فيقضي عليه بذلك معنوياً ، حتى إذا اقدم على قتله بعد ذلك لا ترتفع يد للدفاع عنه .

وهكذا استدعى فرعون سحرته بحسبان موسى واحداً منهم يمكن أن يردوا كيده إلى نحره ، لكن مكيدة فرعون انقلبت عليه ، فآمن السحرة لاقتناعهم بأن ما فعله موسى ليس سحراً من سحرهم ، على ان خاصية موسى النفسية ظهرت في سلوكه حتى في موقف انتصاره ، فما ان بدأ السحرة يمارسون سحرهم حتى بدت على موسى آثار الخوف ، « فاوجس منهم خيفة موسى » ولولا ان الله ثبته لكان لذلك أثر هام على نتيجة ذلك الاختبار الهام .

وبقيت بعد ذلك أمور تكميلية في قصة فرعون ، فلم تجد وسائل الاقناع النظرية والعملية في دفعه إلى الإيمان ، وفي اقناعه بتحرير بني اسرائيل ، وهكذا خرج الاسرائيليون بقيادة موسى من تحت سلطانه ، وكان خروج فرعون وراءهم ايذانا بهلاكه وتقضي ملكه « وانجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين » .

على ان نهاية قصة فرعون إيذان أيضاً ببدء قصة موسى مع قومه أنفسهم ، فقد ظل موسى يمثل دور المحرر لهم ، والقائد لسراياهم حتى خرجوا من مصر ، وأفضوا إلى متاهات الصحراء ، وهنا بدأ قلقهم على المصير ، وعبثا حاول موسى ، العميق الإيمان والاقتناع ان يزيل شكوكهم ، وان يرفعهم إلى مستوى الرسالة التي يحملونها ...

وبدأت مطامعهم الدنيوية تبدو بوضوح ، فكان المن والسلوى ، وكانت أمور أخرى ، ولم يكن ذلك كله .. . فما ان طلب اليهم موسى ان يقاتلوا الكنعانيين في فلسطين حتى يستطيعوا دخولها ، وقالوا له بوقاحة : « اذهب

انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » وكانت سنوات التيه والتجربة لبني اسرائيل.. سنوات قاسية، تهمنا منها ما بدا من خاصية موسى النفسية النموذجية سرعة التأثر . لقد لجأ في لحظة من اللحظات إلى تصرف بدا غريباً حتى في عين الإسرائيليين الذين لم يعودوا يستغربون شيئاً ، وقد فعلوا هم كل غريب ... مضى لميقات ربه ، ثم عاد فوجدهم يعبدون عجلاً اخرجه لهم السامري، وسارع تحت وطأة غضبه وتأثره إلى تعنيف أخيه هارون ، آخذاً بلحيته ، جاراً له صارخاً بأعلى صوته فيه « فرقت بين بني اسرائيل » وما كان ذلك صحيحاً .

وأكثر ما تظهر هذه الخاصية عند موسى واضحة جلية فيما كان بينه وبين العبد الصالح ، فهو يقول لفتاه : لا أبرح سائراً حتى ابلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً ، لا بد من بلوغ هذا المكان مهما مشينا من أزمان ، وفي نقطة معينة وبعد سفر طويل وجوع ونصب ، يلتقي موسى بالعبد الصالح يتعارفان ويتآلفان ويتم بينهما التعاهد على ان يتتلمذ موسى على العبد الصالح شرط ان يكون صابراً غير عجول لأنه سيرى ما لم يحط به خبراً ، لا يسأل عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً ، انها معاهدة قاسية يقسو فيها الأستاذ على تلميذه فيحرمه حق السؤال ، والتلميذ الذي أخذ عليه العهد بالصمت ازاء كل ما يرى حباً في المعرفة ، هو موسى الرسول ، القوي ، السريع التأثر ، الذي عرف بالمبادأة والمبادرة في الأمور ، الذي لا يعرف الهوادة فيما لا يرضى ، الذي القى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره ، ووكز رجلا فقضى عليه .

وينطلقان حتى إذا ركبا في السفينة خرقها العبد الصالح فهل سكت موسى كما تعاهدا ؟ كلا ، وانما انكر عليه فعله ، وبالغ في اتهامه قائلا : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرا ، فيذكره العبد الصالح في حلم الأستاذ قائلا : ألم أقل انك لن تستطيع معي صبراً ؟ فيعتذر موسى ، ويواصلان السير حتى إذا لقيا غلاماً فقتله العبد الصالح عاد موسى إلى سرعة تأثره وحدته في انكار ما

يراه منكراً ، اقتلت نفساً زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئاً نكراً ، فذكره العبد الصالح : ألم اقل لك أنك لن تستطيع معي صبراً ؟ فيفيق موسى من غمرة تأثره وحدته قائلاً : ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذراً .

ثم يواصلان السير حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ، فأقامه العبد الصالح ، فقال له موسى وقد خفت حدة انكاره بعض الشيء : لو شئت لاتخذت عليه أجراً .

وهنا يأخذ الأستاذ تلميذه بما أخذ به نفسه ، معلناً فراقه « هذا فراق بيني وبينك » لكن العبد الصالح لم يترك موسى قبل ان يوضح له ما جرى أثناء رحلتهما فقال : سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة التي خرقتها فكانت لمساكين يعملون في البحر للتحسب والتعايش، فأردت ان اعيبها فقط دون أن اتلفها إذ كان وراءهم ملك يلاحقهم ليغتصب سفينتهم إذا كانت على درجة من الكمال والصلاحية لأنه يغتصب كل سفينة بهذه الصفة ، وإذا احتمل بعض الناس هذا الظلم فهؤلاء لفقرهم لا يحتملونه، ومافعلت ذلك بسفينتهم إلا لحفظها من الاغتصاب .

وأما الغلام فكان أبوه وأمه مؤمنين، فخشينا بما علمنا من قبل الله ان يرهقهما طغياناً وكفراً بنعمائهما ، واساءة لمعاملتهما ، فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما .

وأما الجدار الذي أقمته بعد أن كان مائلاً في قرية ابتعد أهلها عن القرى وحسن اللقاء ، فكان ميراثاً وملكاً لغلامين يتيمين مات أبوهما وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما .

وأشار العبد الصالح إلى أن ما حدث كان بأمر الله وتكليف منه «وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً »

ان خاصية موسى الشخصية النموذجية ، تظهرنا على مدى انسانية الرسل ، فما صار الإنسان الرسول شيئاً آخر ، لكنه بقي انساناً وان تكن انسانية ملتزمة بالدعوة ، اسلوباً وهدفاً .

د ـ حتى إذا التمسنا سمة نموذجية من سمات عيسى عليه السلام لم نجد خيراً من خصيصة « الوداعة » تلك التي كانت المميز الأساسي في شخصيته المحببة المسالمة .

فمنذ ولادته عليه السلام أحاطت به شكوك الناس وأوهامهم فبدأت مع الشك بأمه التي ولدته من غير أب ، فأقبل مدعو التقوى والحرص على الأعراف والتقاليد يعذلونها ويعيرونها « يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا » ولا تفعل وهي الوديعة أيضاً الا ان تشير اليه وهو طفل في المهد رجاء أن يدفع عن نفسه الأذى والبهتان ، ويريد الله سبحانه للوداعة ان تنتصر فيجيب ابن المهد على التقولات « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً .. »

ويذهل القوم ، بيد ان ذهولهم ما يلبث ان يشتد عندما يدخل ابن السادسة الى الهيكل وفيه الفريسيون والكهنة فيحاول ان يردهم عن غيهم وضلالهم بسلامه النفسي ، وهدوئه العلوي ووداعته الغالبة .

وكأنما أراد الله سبحانه وقد كانت حياة عيسى غريبة منذ ولادته وحتى وفاته ، كأنما أراد ان يكون سلاحه غالباً في وجه كل الدعاوي والتساؤلات ، ولا سلاح أغلب من الكلمة الحلوة الصادقة ، والنفس المطمئنة إلى مبادئها ، وصدقها ، ووعد ربها .

فعندما بدأ عيسى عليه السلام دعوته واجـه كل أنواع الضغوط والشكوك والاضطهاد منتصراً عليه بشخصيته النموذجية ،شخصية الوديـع ،الكبير القلب، الذي يريد للناس جميعاً ان تسمو انسانيتهم وان يكون الحق إمامهم ورائدهم .

ويمضي هو في طريقه ، ويمضون هم في عنادهم ، وعدم اصغائهم لصوت الحق الصارخ بهم ، حتى ليوشك ان يحل بهم غضب ربهـم ، فيسارع عيسى الوديع إلى دعاء ربه « ان تغفر لهم فانهم عبادك » .

لقد سما فوق الحقد ، وفوق الخصومات ، وفوق كل أسباب الازعاج الـــتي حاولوا بها ان يثنوه عن دعوته ، وما بذل في سبيل ذلك أي جهد ، ذلك لأن « الوداعة » طبيعة ثابتة فيه وسمة هامة من سمات شخصيته الإنسانية المحببة .

على أنه مذ رأى أن القوم اعرضوا عـنه ، واضطروه إلى أن يكلهم إلى الله سبحانه ، إما عاقبهم وإما عفا عنهم ، ومذ بدأ يحس اقتراب موعد مغادرته لقومه ، أراد ان يترك فيهم للدين الصحيح هداة ، وللوداعـــة الإنسانية رسلاً ودعاة ، فصاح صيحته :

« من أنصاري إلى الله ؟ ! » فتنادى اليه وأجابه قلة من قومههم«الحواريون» الذين آمنوا ان النصر للحق عاجلاً أم آجلاً .

« فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .

وسادت المسيحية الأولى العالم فترة من الزمن بما بعثته فيه من معاني المحـــبة والخير والعطاء .

ومضى عيسى عليه السلام عن قومه وما حسبوا عليه موقفاً واحداً تخلى فيه عن تلك « الوداعة » النموذجية التي اتسم بها ، مذ بدأت افتراءاتهم عليه في مهده، وإلى ان توارى عنهم حتى لا يقتلوه كما قتلوا أنبياء الله مـن قبل ، فإذا سادت

مبادئه بعد هذا ، فما ذلك إلا لأن « وداعة الحق » قوة لا تغلب وان بدا انها ضعيفة لسنوات .

هـ – ولعلنا إذا التمسنا خصيصة نموذجية في شخص محمد ﷺ لن نجد خيراً من « الصدق » يمثل أعمق أعماق تلك الشخصية ، الصدق مع النفس والصدق في مواجهة الآخرين .

هذا الصدق النموذج تجلى في شخصية رسول الله قبل ان ينزل عليه الوحي فكانت قريش تسميه « الصادق الأمين» لما عرف عنه من تنزه عن صغائر الأمور وسفاسفها وملتوياتها .

حتى إذا نزل على رسول الله الوحي تجلت هـذه الخصيصة النموذج بأروع صورها في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية ،ففي سورة من أوائل سور القرآن نجد العتاب الإلهي لرسول الله ، ذلك الذي ما كان محمد يتحرج ان يتلوه كقرآن، وان يدعو الناس إلى تلاوته تأكيداً لما جبل عليه من صدق صادق « عبس وتولى ان جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى أو يذّكّر فتنفعه الذكرى» وتشن عداوة قريش له في المراحل الأولى للدعوة ، بيد ان صدقه مع نفسه ومع الآخرين يبقى كلا في موقعه ، فعندما يدعو رسول الله قريشاً وخاصة اقربائه إلى بطحاء مكة ويقول لهم : « أرأيتم لو اخبرتكم ان خيـلا بالوادي تريد ان تغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ »؟؟

فيجيبونه : نعم ، فما جربنا عليك كذباً !!!

ويحس القارىء لسيرة الرسول عمق التناقض الذي وقعت فيه قريش ومن معها ، ففي الوقت الذي تؤكد فيه ان محمداً لا يكذب تصر على تكذيبه فيما يدعيه من خبر السماء ، إلا ان صدق الرسول النموذجي ما يلبث ان يصبح علماً على الدعوة الإسلامية نفسها ، فها هو محمد النبي يعتبر الصدق المثل الأعلى للمؤمن

في شخص أبي بكر ، فيلقبه بالصديق في مناسبة تنطوي على أعمق الدلالة فيما يتصل بالصدق – النموذج والشامل الذي كان يتميز به رسول الله فقد أسرى الله بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماء ، فأراه ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ، وعاد رسول الله فبلغ قومه ما كان ، غير هياب ولا متردد ، شديد الثقة بنفسه ، لا لشيء إلا لأنه ما كذب ، وما فكر يوماً في ان يخدع نفسه تمويهاً أو يخدع الآخرين ، ويسخر منه الكفرة والمنافقون ، فليس معقولاً في نظرهم أن يمضي في ليلة واحدة إلى بيت المقدس ثم يعود ، ويتردد بعض من أسلم في تصديقه ولسان حالهم انه حتى لو كان هذا قد حصل ما كان واجباً ان يذكر حتى لا يكون الاتهام بالكذب .. ويرد عليهم رسول الله بقول الله « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين » (الحجر/ ٩٥) ، ويلقب أبا بكر بالصديق بتلك المناسبة لأنه أبى أن يتناقض مع نفسه ، فصدق رسول الله فيما أخبر به ، وقال : ان كان محمد قد قال هذا فقد صدق ، اني لأصدقه في أبعد من هذا ، اصدقه في خبر السماء ، أفلا أصدقه في سراه إلى بيت المقدس في ليلة ؟ ..

ويهاجر رسول الله إلى المدينة ، وهناك تتجلى تلك السمة بوضوح واضح في مجال التطبيق للدعوة الإسلامية التي أصّل لها في مكة المكرمة .

وتترى الآيات التي تنبه رسول الله إلى خطأ كان ، أو إلى فعل كان الأولى الا يكون ، او إلى سلوك كان غيره خيراً منه ، فيتلوها رسول الله الصادق الأمين وتكون قرآنا يتعبد به ، يشهد بذلك الصدق النموذجي الذي تجلت فيه شخصية النبي المميزة . ففي وقعة بدر وفي فداء الأسرى بالذات ينزل قول الله « ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » (الانفال / ٦٧) وفي الخندق ينزل قول الله « عفا الله عنك لم اذنت لهم » ؟ (التوبة / ٤٣) ، وفي خلافه مع زوجاته ينزل قول الله « يا أيها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » (التحريم / ١) .

ونقرأ القرآن وسيرة الرسول كلها ، فما تجد موضعاً تحس فيه ان رسول الله جانب الصدق في قول أو فعل أو فكر ، أو تردد في ذلك غير مرة واحدة لا بقصد مجانبة الصدق ، بل بهدف آخر ، تلـك المرة هي مناسبة أمر الله بالزواج بزينب بنت جحش رضي الله عنها ، بعد تطليقها من زيد بن حارثة . فما كان بوسع النبي وهو البشر الذي يكربه قول البشر ، ويتطلع إلى آثار تصرفاته في أعين أصحابه ، فما كان له ان يتردد في هذا المجال خوف ان يكون من ذلك ضرر على الدعوة الإسلامية من وراء ذلك الزواج الذي يحطم عادة التبني الجاهلية ، التي كانت ما تزال سائدة في اعراف الناس حتى ذلك الحين ، وتشتد به عليه الصلاة والسلام الحيرة بين ما اعتاده من أمانة في الصدق ، وصدق في الامانة ، وبين مخاطر تلك الامانة الصادقة على الدعـوة في حاضرها ومستقبلها ، وينزل قول الله مؤكداً أن الصدق مع النفس والآخرين يبني الدعوة ولا يعدمها اياً كانت الاسباب والتفسيرات « وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه » (الاحزاب / ٢٧) والميزان اذن خشية الله لا التردد أمام آراء الناس سواء كانت راضية أم ساخطة .

وما كان صدق رسول الله عملاً من أعمال اللسان أو الجوارح أو حتى الفكر ، لقد كان أشمل من ذلك كله ، كان صدقاً صادقاً في تحـمل مشاق الدعوة ، وفي حمل أمانتها أصلا ، وكان صدقاً في مطابقة الفكر للسلوك حتى صار رسول الله صلوات الله عليه مثلا أعلى للمسلم في دينه ودنياه ، بالغاً أقصى درجات التلاؤم المتاحة لبشر أي بشر ، ذلك التلاؤم مع دعوته الذي عبرت عنه السيدة عائشة أبلغ تعبير عندما قالت « كان خلقه القرآن » .

حتى أهون مظاهر سلوكه وأقلها اثارة للاهتمام كان الصدق النموذج يتجلى فيها فها هم أصحابه يقولون « كان رسول الله يمزح ولا يقول الا حقاً » . وكم لرسول الله من مواقف يظهر فيها الصدق في أقسى الظروف فعندمـــا توفي ابنه

الوحيد ابراهيم ، حزن واشتد به علية السلام الحزن فدمعت عيناه ، وانكسفت الشمس فانصرف بعض الصحابة إلى التعجب من بكاء الرسول ، وبعض آخر إلى الربط بين موت ابراهيـــم وكسوف الشمس . وفي لحظات الحـــزن القاسية تلك لم ينس رسول الله ان يحاول افادة أصحابه ، فافهم المستغربين لبكائه ، ان هذه رحمة وحنان ، ومن لم يرحم من فى الأرض لم يرحمه من في السماء .. وحذر الآخرين بصدقه الجاد من الربط بين موت ولده والكسوف قائـلا « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته » .

وتوفي رسول الله ﷺ ، وما تزال الأجيال المسلمة منذ أربعة عشر قرناً تقرأ في القرآن تعظيم رسول الله إلى جانب نقد بعض تصرفاته وأعماله ، تأكيـــداً لبشريته أولاً ، ولصدقه ثانياً ، ذلك الصدق الذي بدأ في محمـد الطفل الصادق الأمين ، وكبر معه ثم حيي بعده في أذهان الأجيال علماً على تلـــك الشخصية الفذة ، شخصية النبي ، الصادق ، الأمين .

خاتمـــة

كانت كلمة الأستاذ سيد قطب حول غزارة النماذج الإنسانية في القرآن الكريم منطلقنا لمحاولة التحقق من صوابية الفكرة التي طرحها ، فقراءتنا القرآن قراءة متأنيـــة اطلعتنا على ما أذهلنا في هذه الناحية ، فكان ان كتبنا في هذا الموضوع .

ونرى اننـــا استطعنا بالإضافة إلى إثبات صدق نظرة سيد قطب أن نظهر ناحية جديدة وغامضة بعض الشيء من نواحي البيان القرآني ، تلك الناحية التي تبرز الواقعية الدقيقة للقرآن في تصوير النــــاس ، وكشف دخائلهم ، وتحليل فكرهم وسلوكهم ، انطلاقاً من معطيات الواقع ، لا من العلم الالهي فقط .

كما اننا اثبتنا ان الشخصية القرآنية ، هي شخصية دنيوية تعيش على هــذه الأرض ، وتفعل كما يفعل البشر ، خطأ وصواباً وليست نمطاً فلسفياً أو فكريـــاً مستعصي الفهم ، ذلك ان الله طلب إلينا أن نرجع إلى هذا القرآن في كل أمر ، وما نستطيع هذا ان لم نر في القرآن شيئاً منا نحن ، من همومنا على هذه الأرض ، وهكذا كان القرآن ، وهكذا كانت بعض مبررات الرجوع إليه .

ونعتقد ان الانجاز الثالث الذي حققناه اننا وصلنا إلى جانب هــــام من جوانب الدراسات القرآنية ، يمكن الإستفادة منه ، أو على الأقل من امثولته في حياتنا الأدبية ، القصصية والمسرحية .

فالقرآن الكريم ، وهو كتاب الأمــة الأكبر في نظرنا ، يقدم نماذج عميقة الدلالة في مجالات حياتية متباينة ومتنوعة يمكن أن ينشأ على أساس منها أدب قصصي ومسرحي لا يكون غريباً عن شخصية أمتنا وتطلعاتها .

ثم اننــا حاولنا أن ندخل إلى ذلك الحجر المحجور ، حجر النبوة ، فنظرنا إلى الأنبياء كبشر قبل كل شيء،ومن خلال ذلك التوتر الناجم عن إنسانيتهم في مواجهة أشواقهم إلى التسامي من خلال الدعوة نشأت نماذج رائعة في الواقع ، وفي البيــان القرآني أيضاً ، وربما أمكن من خلال هذة النظرة تفسير ظاهرة النبوة ، تفسيراً ، جزئيــاً على الأقل ، ينفي التشكيك فيها ، ذلك التشكيك الذي تثيره فئات كثيرة في عصرنا هذا .

وبعد: لقد حاولنا في الصفحات السابقة أن ننطلق من القرآن لتأصيل ناحية دراسية جديدة ، هي « النماذج الإنسانية في القرآن » .

فإن كان النجاح قد حالفنا فهو ما املناه وسعينا اليه ، وإن كان قــد أخطأنا فعذرنا أننا حاولنا واجتهدنا ولن يفوتنا في الحالين أجر المجتهد المخطىء.

وبالله التوفيق

ثبت المصادر والمراجع

– القرآن الكريم .

– المعجم المفهرس لألفـــاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الشعب .

– تفصيل آيات القرآن الكريم – جول لابوم – ط : دار الكتب المصرية.

– الكتاب المقدس (العهدان : القديم والجديد) .

– الكشاف للزمخشري ، استفدنا به من ناحيتين : البراعة في استكشاف الأسرار البلاغية ، والبعد في الغالب عن الإسرائيليات .

– إبراهيم ابو الأنبياء لعباس محمود العقاد ط : دار الهلال ١٩٦٧ .

– الأدب المقارن . د. حسن جاد حسن . ط : دار الجمهورية ١٩٦٥ .

– الأدب المقارن . د. محمد غنيمي هلال . ط : الدار القومية ١٩٦٧ .

– الاشارات والتنبيهات . لابن سينا ، تحقيق د . سليمان دنيـــا ط : دار المعارف ١٩٥٧ – ١٩٦١. أفادنا في إيضاح نظرة الأقدمين إلى الإنسان في مرحلة تكون المجتمعات .

– اعلام الموقعين : لابن قيم الجوزية . تحقيق : عبد الرحمن الوكيل ، ط : دار الكتب الحديثة ١٩٦٨ . لم نستخدمه إلا في تعريف « المثل » في التشريع الإسلامي .

ـ الأوائل : لأبي هلال العسكري . (مخطوط بدار الكتب المصرية مصور) يبحث في أوائل الأشياء والأعمال ، وتبدأ عبارته : أول من فعل كذا ... أو كذا هدفه : اثبات الاصالة في الفكر العربي وانه ليس مستورداً ، استخدمناه في إيضاح بعض الأمثال .

ـ اعجاز القرآن : لأبي الطيب الباقلاني . تحقيق السيد أحمد صقر ط: دار المعارف ١٩٦٣ (ثانية) .

ـ اعجاز القرآن (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ربما كان أهم كتب هذا النوع من أنواع التأليف قديماً، تميز بنظريته الجديدة في النظم القرآني.

ـ الألفاظ الفارسية المعربة لأدّي شير.ط: المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٠٨ .

ـ الأمثال العربية القديمة : لرودلف زلهايم. ط : دار الرسالة ١٩٧١ ترجمة د. رمضان عبد التواب . يعرض للأمثال عرضاً مقارناً مع اهتمام خاص بأمثال أبي عبيد القاسم بن سلام .

ـ الامثال (مجمع الامثال) للميداني . أفادنا في المجال الذي أفادنا فيه كتاب أبي عبيد . ط : دار العروبة بمصر ١٩٥٣ .

ـ الامثال (التمثيل والمحاضرة) لأبي منصور الثعالبي . ط : دار التأليف بمصر ١٩٥٨ تميز على كتاب الميداني بتبويبه الجديد للأمثال حسب الموضوعات ، لكنه لم يفدنا كثيراً فيا نحن بصدده .

ـ الإنسان في القرآن : لعباس محمود العقاد.ط:دار الهلال ١٩٥١ استخدمناه في الفصل الخاص بالإنسان في القرآن الكريم .

ـ البداية والنهاية : لابن كثير ط : مصر ١٩٤٦ .

ـ تاريخ الامم والملوك . الطبري . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٥٧ ـ ١٩٧٠ ، دار المعارف بمصر .

- التصوير الفـــني في القرآن : للأستاذ سيد قطب . دار الكتاب العربي ١٩٦٧ . طرح فيه فكرة النماذج ، ومنه كان منطلقنا بيد انا لم نرجع اليه بعد لاختلاف منهجنا عن منهجه .

- تفسير الطبري (جامع البيان) لمحمد بن جرير الطبري ط:الاميرية ١٣٢٣.

- تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) . ط : دار الكتب ١٩٢٤ - ١٩٥١ ، يتميز بالنزعة الفقهية التي تسود أبحاثه .

- تفسير ابن كثير. للحافظ ابن كثير. ط:دار احياء الكتب العربية ١٣٧٦هـ أفادتنا ردوده ، على الاسرائيليات في التفسير مع أنه وقع في شيء منها .

- تفسير البغوي (معالم التنزيل) للامام البغوي. ط : المنار بمصر ١٩٤٧ .

- تفسير الخازن (لباب التأويل) ط : الاميرية ١٢٨٧ .

- تهذيب الاخلاق : لابن مسكويه . ط : دار مصر للطباعة ١٩٤٩ .

- الدين د. محمد عبدالله دراز . مصر ١٩٦٤ ، أكثر ما في الكتاب جديد، أفدنا منه في صلة الإنسان بالدين منذ القدم .

- ديوان زهير . ط : دار الكتب ١٣٤٢ هـ .

- ديوان النابغة . ط : دار الفكر ١٩٦٤ .

- الرد على الجهمية : للامام أحمد بن حنبل . ط : حيدر أباد ١٣٣٢ هـ .

- سقراط : لألفرد تيلر . ترجمـــة محمد بكير خليل . ط : الدار المصرية ١٩٦٥ ، تيلر أكبر الدارسين لسقراط بين الانجلو سكسون .

- سقراط : لكوراميسن . ترجمة محمود محمود ، ط : الدار المصرية ١٩٦٥، وقد أفادنا في إيضاح نظرة الإغريق للانسان .

- سنن الترمذي . ط : حيدر أباد ١٣٦٨ .

ـ سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) . تحقيق شلبي وزميليه . ط : ١٩٦٤ أهم مصادر السيرة النبوية ، أفدنا منه كثيراً في الفصل الخاص بالرسول ﷺ .

ـ شرح المواقف : الإيجي . ط : الساسي ١٣٣٤ هـ .

ـ صحيح البخاري . ط : بولاق ١٣٠٢ هـ .

ـ صحيح مسلم (شرح النووي) . ط : مصر ١٣٣٢ هـ .

ـ طبقات الشافعية : لتاج الدين السبكي ١٩٦٥ ـ ١٩٦٨ . ط : مصر .

ـ الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي . ط : داز الفكر ١٩٧٠ .

ـ العقائد النسفية : للامام النسفي . ط : الجمالية ١٣٤٦ هـ .

ـ العقد الفريد : للامام ابن عبد ربه . ط . وتحقيق سعيد العريان ١٩٤٦ .

ـ علم الاجتماع الديني : للدكتور أحمد الخشاب . ط : دار الكتب الحديثة ١٩٦٧ .

ـ عيون الاثر : لابن سيد الناس . ط : الساسي ١٣٤٦ هـ.

ـ غاية المرام : سيف الدين الآمدي . تحقيق : محمود عبد اللطيف ١٩٦٩ ط : المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

ـ فجر الضمير : تأليف : جيمس هنري برستد . ترجمة : د . أحمد فخري ط : وزارة التربية والتعليم في مصر ١٩٤٩ .

ـ فصل المقال شرح كتاب الأمثال للبكري . لأبي عبيد القاسم بن سلام . تحقيق د. احسان عباس د. رمضان عبد التواب دار الرسالة ١٩٧١ ، رجعنا إليه كثيراً في الفصل الخاص بالمقارنة بين الامثال والنماذج .

ـ فن الشعر : أرسطو ، ترجمة عبد الرحمن بدوي . ط : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٣ .

ـ الفهرست : لابن النديم . تحقيق : فلوجل . تصوير لبنان ١٩٦٨ خياط .

ـ الفهرست : لابن خير . ط : دار المكشوف ـ لبنان ١٩٥٧ .

ـ الفوز الأصغر : لابن مسكويه . ط : ايران .

ـ فيض القدير : للمناوي . ط : دار النهضة الحديثة ـ لبنان ١٩٧٠ رجعنا إليه في تقويم بعض الأحاديث .

ـ القاموس المحيط : للفيروزابادي . ط: عيسى الحلبي ١٩٥٧ .

ـ قصص القرآن : لمحمد أحمد جاد المولى وزميليه ط : دار الكتب الحديثة ـ مصر ١٩٥٦ .

ـ قصص الأنبياء : للشيخ عبد الوهاب النجار . ط : مصر ١٩٤٦ (ثالثة) .

ـ لسان العرب : لابن منظور . طبعة مصورة عن طبعة بولاق ـ المطبعة الأميرية ١٩٦٥.

ـ مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح . ط : دمشق ١٩٦٢ (ثانية)

ـ محاورات افلاطون (المحاورات السقراطية) ترجمة د . زكي نجيب محمود ط : النهضة المصرية ١٩٦٤ .

ـ المزهر : للسيوطي . تحقيق أبو الفضل ابراهيم . ط : عيسى الحلبي ١٩٦٢ (ثانية) .

ـ مسرحية السحب : ليوربيدس . ترجمة وليم الميري . ط : النهضة المصرية ١٩٦٥ .

ـ معجم الأدباء : ياقوت الحموي . ط : مرجليوث . مطبعة أمين هندية ١٩٤٦ بمصر .

ـ المعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي . ط : طهران ١٩٦٦، تحقيق أحمد محمد شاكر .

- المنقذ من الضلال : للامام الغزالي . تحقيق د . عبـد الحليم محمود ط : دار الكتب الحديثة ١٩٦٦ .

ـ النبوة والأنبياء : د. محمد علي الصابوني . ط : دار الإرشاد ١٩٦٨ .

ـ النبوة والأنبياء : أبو الحسن الندوي . ط : دار الفكر ١٩٦٩ .

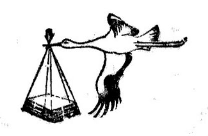
ـ نظرات في الإسلام : د . محمد عبدالله دراز ، ط : المكتب الفني للنشر بمصر ١٩٦٣ .

ـ النماذج الإنسانيه في الدراسات الأدبية : د . محمد غنيمي هلال ، ط : معهد الدراسات الغربية العليا ١٩٦٢ .

ـ وحدة الدين والفلسفة والعـلم : للسيد محمود أبو الفيض المنوفي ط : دار المعهد الجديد ـ القاهرة .

ثبت الموضوعات

صفحة



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب ٧٠٦١ بيروت لبنان



الثمن : ٣٠٠ ق. ل.